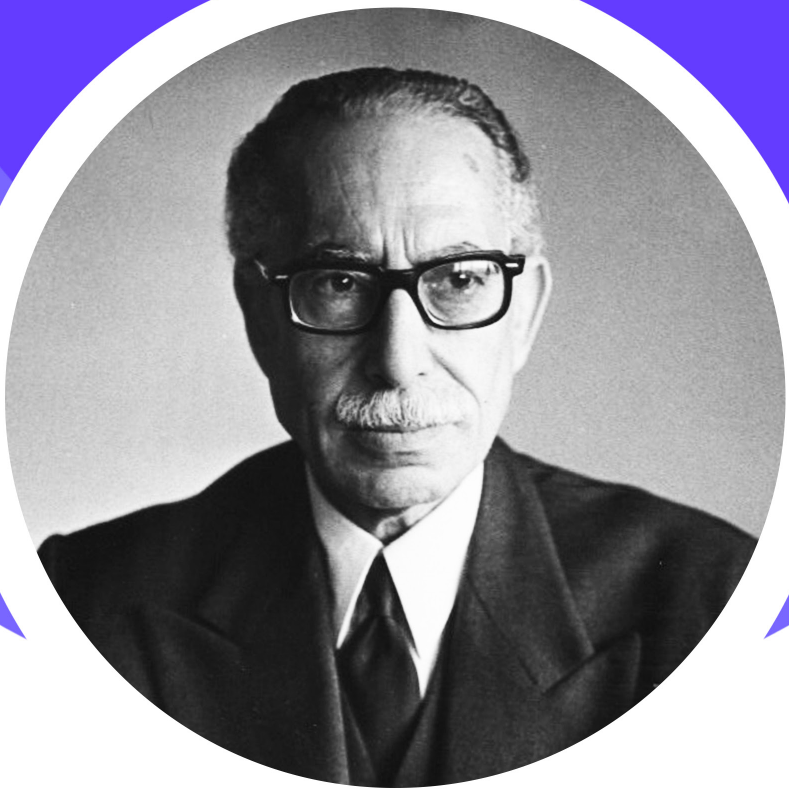

اللص

توفيق الحكيم

اللص

تأليف
توفيق الحكيم

هنـــداوي

اللص

توفيق الحكيم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٧ ٣٣٨٥ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٥٠.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ توفيق الحكيم.

المحتويات

الفصل الأول	٧
الفصل الثاني	٣١
الفصل الثالث	٥٣
الفصل الرابع	٧٧

الفصل الأول

(حجرة نائية في منزل فخم بالزمالك ... بها فرش وثيرة ومقاعد مريحة، وخزانة للملابس، وخزانة للزينة، وبها نافذة مفتوحة تطل على حديقة المنزل ... الحجرة غارقة في الظلام ... ولكن شعاعًا من بطارية كهربائية صغيرة ينطلق في الحجرة من جهة النافذة ... ويظهر شبح يتسلق جدار النافذة صاعدًا من الحديقة إلى الحجرة ...)

(ويتحرك الشبح في أرجاء الحجرة مصوبًا شعاع بطاريته إلى أركانها ...)

(ويقع الشعاع أخيرًا على الفرش ... ثم على مصحف فوق الوسادة ... فيتقدم الشبح إليه ... ويتناوله ويقرأ غلافه تحت ضوء البطارية ...)

الشبح (يقرأ ثم يهمس في عجب): مصحف ... نشر المكتبة الأحمدية بالأزهر! ... (وعندئذٍ تدق الساعة دقة واحدة بعد منتصف الليل ... فينطفئ شعاع البطارية في الحال (كالمفزوع) ثم تُسمع أصوات تقترب ... فيترك الشبح المصحف فوق الفراش ... ويسرع باحثًا عن مكان يختبئ فيه ... ويهتدي إلى ستارة النافذة فيختفي خلفها ... وعندئذٍ يفتح باب الحجرة ... وتدخل الآنسة خيرية ... بملابس الخروج ... وتدير زرًّا في الحائط قرب الباب فتضيء الحجرة ... وإذا خلفها «الباشا» داخلًا الحجرة بملابس الخارج ...)

خيرية (تصد الباشا بأدب): لا تدخل ... أرجوك! ...

الباشا (يرسل أنظاره في أنحاء الحجرة متنهدًا): الجنة! ... بأي حق تصدينني عن دخول الجنة؟! ...

خيرية : انصرف ... من فضلك ...

الباشا: أي ذنب ارتكبت لأطرد من هذه الجنة؟ ...

خيرية: حجرتي ليست الجنة ...

الباشا: كل مكان تحلِّين فيه هو بالنسبة إليَّ نعيم معطر بأنفاسك! ...

خيرية: إني لفي جحيم ... في جحيم ...

الباشا: مرحبًا بهذا الجحيم! ... مهما يكن من سعير جحيمك فإنه لا شيء إلى جانب نيران قلبي! ...

خيرية : أهي رواية السينما التي أخرجتك الليلة عن أطوارك؟ ...

الباشا: كان العاشق في الرواية أبرد من لوح الثلج ...

خيرية: كان سلوكك معي في السينما غير لائق ... أحذرك من أن تمسك بيدي هكذا في الظلام مرة أخرى ... تذكَّر أمي التي كانت بجواري ... غارقة في ثقتها العمياء، وحبها العميق لك ...

الباشا: لم يكن لي على يدي حكم ولا سلطان ... لكأن في تلك اليد قلبًا مستقلًّا يدفعها إلى يدك ...

خيرية: إنك ستدفعني إلى كارثة ...

الباشا: إني واثق أن صدك لن يدوم طويلًا ... أوَمستطيع كيانك الرقيق أن يقاوم اللهب ... مهما تفعلي فأنت محترقة بما يضطرم به قلبي من غرام ...

خيرية (مرتاعة)**:** بابا ...

الباشا: لا تنطقي بهذه الكلمة ... لا تنطقي بهذه الكلمة ...

خيرية: أرجوك أن تذهب ... اذهب ...

الباشا: أرجوك أن لا تحرميني هذه اللحظة! ... حذارِ أن تحرميني هذه اللحظة بقربك في هذا الليل الساكن الجميل ... لحظة واحدة منك أشتريها بكل ما في رصيدي من أموال ... اسأليني شيئًا مهما يكن باهظًا ... اطلبي ... لا تخجلي ... ليس أحبَّ إلى نفسي من أن أراك تطلبين إليَّ طلبًا ... ولو كان روحي ...

خيرية: أطلب خروجك ...

الباشا: خروج روحي؟! ...

خيرية: خروجك أنت من هنا ... من حجرتي الآن ...

(الجرس يدق في البهو ...)

خيرية: هذه أمي! ... أمي تدعو الخدم لتسأل عنك ... إنها لم ترك صاعدًا إلى حجرتك ... اذهب إليها ... اذهب ...

الباشا: سأذهب لأخلع ثيابي ثم أعود ...

خيرية: إني متعبة ... سأغلق بابي وأنام ...

الباشا: لا تنامي يا خيرية قبل أن أراك مرة أخرى ... وأقدم إليك ما أعددته لك من مفاجأة ... ألا تعرفين أني سأفاجئك بما يبهرك؟! ...

خيرية: في الصباح ... قدِّم إليَّ ما أعددت في الصباح ...

الباشا: بل الليلة ... إن هذه المفاجأة لا يكون لها معنى إلا في الليل ...

(الجرس يرن في البهو ...)

خيرية: اذهب قبل أن تقلق أمي وتأتي فتجدك هنا! ...

الباشا: إلى اللقاء بعد ربع ساعة، لا تنامي ... سأطرق بابك، ولأوقظك ...

(يخرج وهو يرسل إليها قبلة في الهواء ...)

خيرية (تندفع إلى الباب وتغلقه بالمفتاح)**:** أف ... إلهي ... إلهي ... أنقذني مما أنا فيه ... أرسل إليَّ ملاكًا أو شيطانًا يخرجني من هذا المأزق ...

(الشبح يخرج من خلف الستار ... وإذا هو شاب وسيم في ثياب نظيفة، ولكنها غير فاخرة.)

الشاب: ها أنا ذا ...

خيرية (تصرخ صرخة فزع مكتومة)**:** النجدة! ...

الشاب (يبادر ملاطفًا)**:** لا تصرخي ... ولا تستنجدي ... ألست أنت التي سألت الله أن يرسلني إليك؟!

خيرية: من أنت؟ ...

الشاب: ملاك أو شيطان ... لست أدري ...

خيرية (تنظر إلى النافذة المفتوحة بجوار الستارة)**:** لص؟ ...

الشاب: يا للناس! ... أهكذا تسمون من يأتي إليكم من السماء؟ ...

خيرية: إنك جئت من هذه النافذة ...

الشاب: لأنها أسهل طريقة ...

خيرية: ماذا أنت تصنع هنا في حجرتي؟ ...

الشاب: أولًا ... ألا تذكرين أننا تقابلنا قبل الآن؟ ...

خيرية: تقابلنا؟! ... أين نستطيع أن نتقابل؟ ...

الشاب (يتناول المصحف)**:** من أين اشتريت هذا المصحف؟ ...

خيرية: من مكتبة في حي الأزهر ...

الشاب: بالضبط ... من المكتبة الأحمدية ... ألا تذكرين البائع الذي يدير المكتبة ... تفرَّسي في وجهي جيِّدًا ...

خيرية (تتفرس في وجهه)**:** أنت! ... حقًّا ... حقًّا ... تذكرتك ...

الشاب: كان ثمن المصحف ثلاثين قرشًا ... ولكنك دفعت إليَّ ورقة من فئة الخمسة جنيهات ... فأوقعتني في حيرة ... ولم يكن في المحل وقتئذٍ نقود صغيرة لأرد إليك الباقي ...

خيرية: نعم ... نعم ... أذكر الآن ... وقد قدمت إليَّ كرسيًّا ... وطلبت لي كوبًا من العرقسوس ... من بائع جائل ... وذهبت تبحث عن الفكة ...

الشاب: تاركًا المحل في حراستك ...

خيرية: وجاء في غيبتك بعض الزبائن يسألونني عن كتب في التفسير والفقه ... ويدهشون لبائعة في حيِّ الأزهر بثيابي هذه ...

الشاب: التي على آخر «موضة»! ...

خيرية (تتأمله)**:** حقًّا ... هذا أنت ... ولكن ماذا جئت هنا تصنع في حجرتي في مثل هذه الساعة من الليل؟! ...

الشاب: جئت كي ... أتريدين الصراحة؟ ...

خيرية : أريد الصراحة طبعًا ...

الشاب: إني الآن خجل من ذكرها ... ما كنت أحب القدر يوقعني في بيتك أنت بالذات ... وفي حجرتك ... ولكني تخيرت منزلًا فخمًا في حي الزمالك، لا أعرف لمن ... وبعد أن تمكنت من دخول الحديقة وجدت نافذة مفتوحة، في هذا الطابق الأول ... فمن غير المعقول أن أتركها، وأتسلَّق إلى حجرة مغلقة في الطابق الثاني ... خصوصًا وأنا حديث عهد بهذا العمل غير الشريف ...

خيرية (في دهشة واستنكار)**:** جئت تسرق؟ ...

الشاب: بل أقترض ... لقد كان في نيتي أن آخذ من هنا حاجتي من النقود على سبيل القرض ... ثقي بذلك ... ولو لم تفاجئيني الساعة لوجدت ها هنا قرب فراشك ورقة هي إيصال بالمبلغ، ووعد بالسداد عندما ينجح المشروع ...

خيرية: أي مشروع؟ ...

الشاب: مشروع تجاري ... لا يهمك فيما أظن أن تعرفي الآن تفاصيله ...

خيرية: أولا يستطيع البنك أن يقرضك ما تريد؟ ...

الشاب: أنا لا أحب التعامل مع البنك ... أتدرين لماذا؟ ... لأنه لا يثق بي ... إنه يقول لي: قبل أن تقترض مني أخبرني أين رصيدك وأين ضامنك؟ ... يجب أن أكون غنيًّا ليدفعوا لي ... ثراء يقرض ثراء ... تلك هي البنوك ... خُلقت لتمد الأغنياء. أما بنك الفقراء فلم يُخلق بعد. ذلك البنك الذي لا يطالب المحتاج المعدم إلا برصيد من نيته وضامن من ضميره ...

خيرية (تفتح حقيبة يدها)**:** كم تريد أن أقرضك؟ ...

الشاب: مائة جنيه بالتمام ...

خيرية: مائة جنيه ... هذا مستحيل ... إني لا أملك في حقيبتي أكثر من ... انظر بنفسك ... من ثلاثة وعشرين ...

الشاب: آسف ... إن سوء الحظ يلازمني ... ألا أستطيع يا ربي العثور على مائة جنيه بشرف أو بغير شرف ...

خيرية: أنت أيضًا تريد أن تعتدي على الشرف؟! ... كل الناس من حولي لا يعنيهم الشرف! ... إلهي! إلهي! ...

الشاب: عفوًا أيتها الآنسة، أعلم لماذا تقولين ذلك ... أنانيتي حبستني في نطاق مصالحي وأهدافي ... ولكني أعرف ما أنت فيه ... لقد سمعت كل شيء من خلف هذه الستارة ...

خيرية: سمعت كل شيء؟ ... نعم ... لا بد أنك سمعت ...

الشاب: إنها حقًّا لكارثة! ... أهذا الرجل أبوك؟

خيرية: لا ...

الشاب: ليس أباك ...؟ ولكني سمعتك تقولين له يا بابا ...

خيرية: أقول له يا بابا، ولكنه ليس أبي، (كالشاردة) آه ... إن هذا فظيع.

الشاب: ما هذا الاصفرار على وجهك، وما لشفتيك ترتجفان! ...

خيرية (تجلس متخاذلة على مقعد)**:** أرجوك أن تتركني الآن وحدي ...

الشاب: أخبريني ماذا بك؟ ...

خيرية (تضع رأسها في كفيها)**:** دعني ... دعني لمصيري ...

الشاب: لمصيرك؟ ... لست أفهم شيئًا ... يا له من أمر عجيب ... لقد قابلتني بشجاعة ... وقد رأيتني فجأة في حجرتك ... وها هي ذي شجاعتك تخونك فجأة لأمر لا أعرفه ...

خيرية: أرجوك ... لا شأن لك بي (تتناول حقيبتها) ألا يكفيك هذا المبلغ الذي معي؟ ...

الشاب: ألا تريدين أن تطلعيني على ما يعذبك؟ ... ربما استطعت لك بعض المعونة.

خيرية: لا أظن في مقدورك أن تصنع لي شيئًا ... تكلم في شأنك أنت ... ليس في حقيبتي الآن ما أقدم إليك سوى ...

الشاب: صدقت، ليس من حقي أن أسألك الإفضاء إليَّ بأسرارك. فلأرجع إلى شئوني أنا. أصارحك أن المبلغ الذي أحتاج إليه هو مائة جنيه. لا تنقص قرشًا ... ولا تزيد قرشًا ...

خيرية: ولماذا تصر على هذه المائة جنيه ...

الشاب: للمشروع ...

خيرية: ما هذا المشروع؟ ...

الشاب: اسمعي ... لا بأس عندي الآن من أن أطلعك على مشروعي ... بل ولا ضير من أن أكشف لك عن كل حياتي. أنا يا آنستي كنت طالبًا في كلية الآداب ... وكان أبي موظفًا في إحدى الشركات الكبرى، وله سبعة أولاد غيري ... فمات ولم يترك لنا شيئًا ... إنما ترك بعض أولاده عاجزين عن مواصلة دراستهم ... فتشردوا يطلبون الرزق من أعمال مختلفة، وكان نصيبي هذا العمل في المكتبة التي رأيتني فيها بحي الأزهر ... صاحبها أميٌّ لا يعرف القراءة ولا الكتابة. فكنت أنا له اليد اليمنى بل المعين والعقل والروح ... وأخلصت لعملي كل الإخلاص ... فكنت أنا الذي أعقد له صفقات الكتب القديمة والحديثة ... وأقتني له المصاحف النفيسة والرخيصة، وأبيعها له بأحسن الأثمان وآتي له بأوفر الأرباح ... وأنظم له المكتبة وأنظفها وأكنسها وأنفض الغبار عن رفوفها وأرش بالخرطوم أمام بابها ... بينما يجلس هو يدخن الشيشة ويشرب الشاي الأخضر في المقهى المجاور ... ثم فوق ذلك أحتال له على مغموري المؤلفين فآخذ منهم مؤلفاتهم وعصير أذهانهم بأبخس الأجر ... ملوِّحًا لهم بسراب المجد نافخًا فيهم روح الفخر ... فيطبعها هو، أو على الأصح أباشر أنا طباعتها له وأُشرف على نشرها ... فيكون له من وراء ذلك جميع الغُنم ... ولمؤلفيها الأفاضل المتضورين جوعًا لا شيء غير الوهم ... وكان لي على كل هذا التفاني في الخدمة والإخلاص في العمل مرتب شهري ... أتدرين كم مقداره يا آنستي؟ ...

خيرية: كم؟ ... عشرون جنيهًا على الأقل ...

الشاب: سبعة جنيهات لا غير ...

خيرية: ماذا تقول؟ ...

الشاب: الحقيقة. وكلما رجوته أن يرفع مرتبي قليلًا بكى واشتكى ثم هدد وتوعَّد ... ثم جعل أذنًا من طين وأخرى من عجين ... وردد عبارته الدائمة: «اصبر وتحمل»،

فصبرت وتحملت إلى أن شيَّد فوق أكتافي عمارة في السكة الجديدة مكونة من سبع طبقات ... وأخيرًا يا آنستي حدث ذات يوم أن دب بيننا خلاف ... إذ اتهمني بأني حابيت مؤلفًا مغمورًا فاتفقت معه على أجر لكتابه استكثره عليَّ واستهوله ... مع أنه أجر لا يكاد يمسك الرمق ... فصرخ في وجهي وشتمني وسبني، وسمع كل أهل الحي صياحه وهو يقول لي: «سرقتني! جعلت المؤلفين يسرقونني أيها اللص ... أيها اللص ...» ونسي خدماتي الطويلة له ... وعرقي الذي سال في جيوبه ذهبًا وهو جالس، بشيشته، في المقاهي ... فطردني أشنع الطرد ... نعم طردني أمس فقط ... فخرجت من دكانه على غير هدًى ... لا أدري ماذا أصنع ... أسائل نفسي: ما هو ذلك الشيء الذي جعل منه سيدًا وجعل مني كلبًا؟ ... أهو العلم؟ ... لا ... أهو العمل؟ ... لا ... فأنا الذي من نصيبي هذان الشيئان! ... ما هو ذلك الشيء إذن؟ ... لا شك أنها تلك (المائة جنيه) التي اعترف لي يومًا قائلًا بزهوٍ إنها كانت كل رأسماله الذي فتح به تلك المكتبة في أول عهدها! ... نعم ... مائة جنيه ... عندئذٍ أقسمت أن أعثر على مبلغ ١٠٠ جنيه مثل التي فتح بها مكتبته من أي طريق لأفتح مكتبة وأستخدم موظفًا أعتصر جهوده قطرةً قطرة وأشيد فوق كاهله — حجرًا حجرًا — عمارة من سبع طبقات في السكة الجديدة أو الحسينية أو حتى باب الشعرية! ... ذلك هو مشروعي أيتها الآنسة.

خيرية: نعم ... نعم ... فهمت ... ولكن ...

الشاب: لكن ماذا؟ ...

خيرية: كل هذا لا يبرر أن تكون لصًّا؟! ...

الشاب: وهل كنت كذلك حقًّا عندما اتهمني مخدومي ظلمًا وصاح بي في حي الأزهر: أيها اللص ... لقد كنت وقتئذٍ أشرف إنسان ... ولكن الناس صدقوه هو ... وما دار في خلدهم قط أن اللص الحقيقي هو ذلك الصارخ المستنجد ... ما عاد يهمني مصدر النقود يا آنستي ... ما دمت لم أُضبط ... وما دام في جيبي هذه المائة جنيه، فسوف أرغم الدنيا كلها على احترامي وأتهم بملء فمي أشرف الناس باللصوصية ...

خيرية: إني أعذرك ... وأدرك ما أنت فيه ... إن الإنسان في مثل موقفك ليثور أحيانًا على كل الأوضاع ... ويفقد إيمانه بالفضيلة ... ولكني مع ذلك لا أقرك على هذا المسلك ... ثق أني لا أقولها تنصلًا من إعطائك ما تريد ... فإني سأدبر لك المبلغ مهما يكلفني ذلك ... ولكن لن أنسى مطلقًا أنك لص ضبطته في حجرتي ...

الشاب: رأيك فيَّ له قيمته ولا شك ... لكن الذي أطمع فيه الآن ليس نبل المسلك، ولا حسن السمعة ... ولا طيب الأحدوثة ...

خيرية: أخشى أن تندم يومًا على هذه الزلة.

(يُسمع طرق خفيف على باب الحجرة ... فيرتبك الشاب ولا يدري ما يفعل ... ويضع أصبعه على فمه طالبًا من الفتاة أن لا تكشف أمره ... ويستمر الطرق فيسرع الشاب إلى الاختفاء خلف ستارة النافذة، بينما تتجه خيرية إلى الباب وتلمس مقبضه ولا تفتحه ...)

الباشا (يهمس من خلف الباب): أنا يا خيرية ... هل أدخل؟ ...

خيرية (تنظر إلى الستارة ثم إلى الباب مترددة ثم تسرع قائلة): لا ... لا يا بابا ... لا تدخل الآن ... إني ... إني لم أخلع ثيابي بعد ...

الباشا (همسًا من الخارج): خذي راحتك ... سأعود بعد قليل ...

(يسكت صوت الباشا ... وتظل خيرية لحظةً بلا حراك تنظر إلى الباب ... ويبرز الشاب رأسه خلف الستارة فتلتفت إليه الفتاة طالبةً إليه بإشارة من يدها ألا يحدث صوتًا ولا ضجة ...)

الشاب (يخرج من خلف الستارة هامسًا): شكرًا لك أيتها الآنسة ... لقد أنقذت حياتي ... أو حياة ذلك الرجل ... إذ لو كان دخل وضبطني ...

خيرية: يجب أن تذهب الآن.

الشاب: نعم ... قبل أن يعود ...

خيرية (كالمخاطبة لنفسها): يعود؟ ... نعم ... إنه لا شك عائد الليلة! ... إني أفضل أن أفتح بابي هذا للموت على أن أفتحه الليلة لهذا الرجل ...

الشاب: هذا الرجل الذي يعرض عليك غرامه ... ويعد لك مفاجأة ...؟

خيرية: ألا تستطيع الأرض أن تبتلعني قبل أن يأتي؟ ... ألا تستطيع السماء أن تخطفني؟ ... أين أذهب؟ ... أين أهرب؟ ...

الشاب: لو أخبرتني بأمرك أيتها الآنسة؟! ... لقد أخبرتك أنا بأمري ... إني أراك في محنة لا أعرف ما هي؟ ... أطلعيني على محنتك؟ ... ثقي أني حفيظ لأمانتك. إنها لسعادة كبرى أن تتيح لي الظروف أن أكون موضع سرك!

خيرية: بل قل إنها لسخرية كبرى! ... لكن ... ما حيلتي ... ما من شيء أمسى يصدمني أو يحرجني بعد هذا الحرج الذي أنا فيه ... إني لست فقط في حرج ... بل إني لفي خطر ... نعم ... إني في هذه الحجرة أشد تعرضًا للخطر منك أنت ...

الشاب: تتعرضين للخطر وأنت في حجرتك هذه أيتها الآنسة؟! ... ليس لي حق التدخل في حياتك أو الاطلاع على شئونك ... ولكن واجبي كإنسان تتحتم عليه حمايتك، يرغمني على أن أطلب إليك الإفضاء إليَّ في الحال بأمرك! ... تكلمي ... بل أحتم عليك الكلام ...

خيرية (تطرق لحظة تفكر ثم ترفع رأسها): اسمع إذن يا سيدي ... اللص أو المفترس أو المجتهد أو ما شئت لا تهمني صفاتك ولا مؤهلاتك ... كل ما يهمني أنك إنسان ... أستطيع الآن أن أُسمعه قصتي التي كتمتها في صدري وكدت بها أختنق ... قلت لك إن هذا الرجل ليس أبي ... لقد مات أبي منذ أكثر من ثمانية أعوام ... وكنت في الثالثة عشرة ... فلم ينقضِ عام حتى تزوجت أمي هذا الرجل ... فقد كانت في عنفوان جمالها ... وما كان من الممكن أن تظل طويلًا بلا زوج؛ فتتعرض لأقاويل الناس ... ومنذ زواجها أُلحقتُ بالقسم الداخلي في المدارس الأجنبية إلى أن تخرجت منذ شهور ... وكان لا بد لي بعدئذٍ أن أتخذ هذا البيت سكنى ... وأن أعيش مع والدتي وزوجها. ولقد أوصتني أمي أن أتخذ من هذا الرجل أبًا ... فأطعتها وصرت أناديه يا بابا ... وكان هو يحدب عليَّ حقًّا ... ويحوطني بعطف وعناية وحنان امتلأ بها قلبي اطمئنانًا، وأفعم بها قلب والدتي اغتباطًا ... ومرت الأيام وهو يزداد حرصًا على إرضائي وتدليلي ويكثر من الذهاب بي إلى السينما مع والدتي أحيانًا وأحيانًا بدونها ... وفي الظلام الدامس يأخذ يدي في يديه ... ويميل بوجهه حتى يلامس خده شعري ... وأحس حرارة أنفاسه تهب لافحة محرقة على أذني كريح الخماسين ... إنها ليست حرارة الحب الأبوي ... إنها شيء ارتجف له قلبي خوفًا ... وجسدي اشمئزازًا، وصرت أُظهر التعامي والتجاهل وأبدي التغابي والتغافل. وصار هو يلاحقني بالتلميح تارة ثم بالإشارة ... ثم أخيرًا بالتصريح ... ثم انتهى إلى التوسل والتذلل والترغيب والإغراء ... لا يخجله استنكاري الذي أبديه بفزع وجزع ... ولا تصده عني كلمة «بابا» التي ألقيها بيني وبينه كأنها تعويذة تقى من شيطان ... لقد أسفر الآن عن وجه مأربه ... إنه لا يراني كابنته ... ولكن كامرأة ... وهو يريدني بأي ثمن أن أكون له ...

الشاب (مرتاعًا): ماذا؟ ... (هامسًا) عشيقة؟! ...

خيرية: صه! ... نعم ... يا له من أمر فظيع كما ترى! ... ولكنها حقيقة الموقف ... إنه يريد أن يسلبني أعز ما أملك ... ولا يفطن إلى فداحة ما يأخذ مني ... نعم ... لقد هالني أنه يريد ذلك ببساطة ... وبغير تفكير ... كأنما هو شيء طبيعي؛ شأن من اعتاد أن يأخذ كل ما يريد بلا تفكير ولا جهد ... وهو معتاد ذلك ولا شك ... هذا «الباشا» الذي يدخن سيجاره الكبير ويجلس في ناديه، وعلى النقود أن تُصب في حساباته الجارية في

البنوك دون أن يحفل كيف تنبعث ولا كيف صنعت ... فهو كما قد تعلم مساهم في كل الشركات تقريبًا ... إنه من أولئك المدرجة أسماؤهم في تلك القائمة الخاصة التي توزع فيما بينها أسهم كل شركة مضمونة الربح قبل أن تعرض النفاية القليلة على الجمهور؛ ذرًّا للرماد في العيون ... إنك لا شك سمعت عن هذا النوع ...

الشاب: من رجال الأعمال ...

خيرية: نعم ... كما يقولون ... هؤلاء الذين يأخذون المال من الأعمال ويتركون للآخرين الأعمال بغير المال ...

الشاب: مثل صاحب مكتبتي ...

خيرية: أرجوك ... لا تفكر الآن في أمرك ... أصغ إلى مصيبتي أنا ... فهي أفدح من مصيبتك ... إن ذلك الذي يشتري عرقك بدراهم ... ليس مثل الذي يشتري عرضي؛ مهما يكن الثمن ... إن هذا الباشا الذي أدعوه أبي لا يريد أن يفهم خطورة ما يريد ... لقد جعل يبذل لي من الهدايا ما أدهش والدتي، ما من أسبوع يمر دون أن يقدم لي حلية من ماس أو لؤلؤ حتى امتلأت خزانة زينتي هذه الجواهر (ينظر الشاب إلى الخزانة مليًّا). إن قاموس هذا الرجل لا يحوي غير كلمة واحدة: النقود ... ذلك أنه لا يطالع في الدنيا غير وجهها وحده ... فبها يتنفس ويعيش ويبطش. ليس أخطر من إنسان لا يدرك أن في الحياة قيمًا أنفس من المال وأسمى ... لذلك عجزت عن أن أُفهمه لغتي.

الشاب: إنها عين العقلية عند هؤلاء جميعًا ... إن الذهب ليس فقط نوعًا من المعادن النفيسة، ولكنه أيضًا نوع من المعادن السامة، قاتلٌ لكثير من الفضائل الإنسانية ... إني مقدر للخطر الذي أنت فيه، وأخشى أن يكون الأمر قد ...

خيرية: لا ... لم يقع شيء بعد ... إني أدافع عن نفسي دفاع المستميت ... ولكن هجومه شديد ... كان الأمر يسيرًا عليَّ يوم كان يكتفي بمغازلتي في البهو نهارًا أو في ظلام السينما. ولكنه تجرأ منذ أيام على اقتحام حجرتي في الليل بعد أن تنام والدتي والخدم ...

الشاب: ألم تخبري والدتك؟ ...

خيرية: كيف تريد أن أخبر هذه المسكينة؟ إنها تهيم به حبًّا ... أي فاجعة تصيبها لو علمت ... ثم هي وحيدة فقيرة لا عائل لها غيره. وهنا موضع ضعفي الذي يستغله هذا الرجل ... عندما طرق بابي في الليل أول مرة ... همس راجيًا أن أفتح له لأمرضه؛ فقد زعم أنه أصيب ببرد في الكلى ... ويريد شرابًا ساخنًا، ولا يود إزعاج والدتي ... فلم يسعني إلا أن أفتح له؛ فدخل يبسم ويلثم يدي ... ويضع في معصمي سوارًا فاخرًا ... فأطرقت شاحبة

مرتجفة وزجرته برفق واحتلت عليه حتى خرج ... لكنه كرر هذا العمل بعد ذلك؛ فرفضت عندئذٍ أن أفتح له الباب ... وهنا بدأ يتوعد ويتهدد بأنه سيوقظ أهل المنزل ويجعلها فضيحة ويطلق والدتي. فهو وحده الذي يستطيع أن يبطش بها ويطردها ويشردها. وأنا وحدي كما يقول، التي أستطيع أن أشتريها وأنقذها وأدرأ عنها وأحميها ... ففتحت له وجعلت أتضرع إليه وأبكي بين يديه، ولكنه ما كان يذعن وينصرف إلَّا على وعد بالرجوع في ليلة أخرى ... وعلى أمل بأن يظفر يومًا بما يسميه الرضا والوصال. تلك حالي. ماذا أصنع؟ ... أخبرني ... ما من أحد جرؤت على أن أفضي إليه بهذا السر ... انصحني بما يجب أن أفعل، إن مقامي في هذا البيت أمسى مستحيلًا ... وخروجي منه ليس أيضًا بالأمر اليسير ... فهذا الرجل لا يقبل طبعًا مغادرتي لمنزلي وسكني عند أهل والدي المرحوم ... وهؤلاء أيضًا ليسوا الآن في ظروف عائلية تسمح لهم بإيوائي ... ومن المتعذر أن أتزوج ... فهذا الرجل يرفض ويطرد كل خاطب ... وليتني تعلمت في الجامعة أو غيرها ذلك النوع من التعليم الذي أستطيع به اكتساب رزقي في الحياة ... والاستقلال بنفسي ... إني حيرى، ضعيفة، مهددة في شرفها في كل لحظة ... لا أجد غير هذا المصحف ... جئت به لأستمد منه الشجاعة والعزاء ... أطالع فيه كل ليلة آية بعينها: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ... وإني لأتخذه درعًا كلما دخل عليَّ هذا الرجل ليلًا ... أتناوله في يميني لأخجله ... وأجعله بيني وبينه سدًّا يحميني ... إني تعسة ... تعسة (تخرج منديلها وتكفف دموعها) ...

الشاب: لا تبكي يا آنسة ... إن الذي يجب أن يسيل ليس دمعك ... بل دم هذا الشقي ... أصغي إليَّ جيدًا ... تريدين مخرجًا من كارثتك؟ ... لا أرى الآن غير حل واحد ...

خيرية: ما هو؟ ...

الشاب: هذا الحل الوحيد هو ... أتعديني أولًا أن لا تترددي؟ ...

خيرية: ما هو؟ ...

الشاب: قتل هذا الرجل ... إنه عائد إليك الآن ... سأكمن له خلف هذه الستارة ... فإذا دخل حطمت رأسه بهذا (يلتفت حوله باحثًا فيرى كرسيًّا) بهذا الكرسي ... ثم خنقته بيدي ... وقفزت من هذه النافذة حاملًا جواهرك ... وبعد ذلك تصيحين (اللص ... اللص) بهذا أبني أنا لنفسي حياة جديدة ... وتتحررين أنت منه، وتتنفسين حياة طليقة شريفة ...

خيرية: شريفة؟! ... بعد هذا الجرم؟! ... أجننت؟ ... أيخطر في بالك أني أوافقك على ارتكاب جريمة؟! ... وهل تظن أنك بهذا الحل المنكر تسعدني؟ ... وقد شقيت أمي بموت الرجل الذي تحبه؟ ... ثم أنت؟ ... كيف يسوِّغ لك ضميرك مثل هذا الفعل الأثيم؟! ...

الشاب: لقد رضيت لنفسي أن أكون لصًّا ... فهل أرفض من أجلك أن أكون قاتلًا؟!

خيرية: لا ... لا ... إنك قد زللت بدخولك حجرتي كلص ... وقد كدت أعتقد أنك الآن نادم على هذه الزلة ... فلا تفجعني في عقيدتي ...

الشاب: أيهمك أن أكون رجلًا شريفًا؟ ...

خيرية: نعم ...

الشاب: الآن؟ ... وأنت معرضة لهذا الخطر الذي يهدد طهرك؟! ...

خيرية: سأدافع عن نفسي ... وأظل أدافع حتى أموت ... ولكن لا ينبغي لك ولا لي أن نفقد الشرف دفاعًا عن الشرف ...

الشاب: أنت فتاة غريرة؛ تتغذين بالكلمات ... بينما الآخرون يتغذون بدمائنا ...

(يُسمع طرق خفيف على الباب ... وصوت الباشا يهمس: خيرية ... خيرية ... فترتعد الفتاة ...)

خيرية (بصوت مرتفع): انتظر لحظة يا ... بابا ... لحظة (للشاب هامسة) اذهب من النافذة بسرعة ... اذهب ... اذهب ...

الشاب (همسًا): سأبقى ... وسأنفذ ما في رأسي ...

(يجذب الكرسي قرب الستارة ثم يختبئ خلفها.)

خيرية (همسًا): أتوسل إليك ... أتوسل إليك أن لا تقدِم على هذا الإثم ...

الشاب (همسًا وهو يطل برأسه من خلف الستارة): إذا استفزتني دناءة هذا الرجل فلن أضبط أعصابي ...

الباشا (من الخارج): من عندك يا خيرية؟ ... أسمع كلامًا في حجرتك ... افتحي حالًا (يدير مقبض الباب).

خيرية (تسرع إلى فتح الباب فيدخل الباشا في روب دي شامبر حريري): إني متعبة ... وما كان ينبغي أن أذهب إلى السينما الليلة ... كنت أود أن آوي توًّا إلى فراشي.

الباشا (يتأملها): ومع ذلك لا تزالين بملابس الخروج ... من كنت تحادثين (يجيل بصره في الحجرة) خيِّل إليَّ أني سمعتك تخاطبين أحدًا.

خيرية (رابطة الجأش): نعم ... خيِّل إليك ... أوَلم تقل إنك عائد ... لم أرد خلع ملابسي انتظارًا لمجيئك.

الباشا: أحقًّا ... كنت تنتظرينني أنا؟ ...

(يجول في الحجرة منقبًا بعينيه ... ويدنو من النافذة المفتوحة ويطل منها ...)

خيرية: عمن تبحث؟ ...

الباشا: الليل ساكن ... والهواء منعش ... والشجر في حديقتنا يهمس ... و... (يلتفت إليها) وجمالك مغرٍ ... وشبابك يسحر ... ونضارتك تسكر ...

(يجلس إلى الكرسي المجاور للستارة ...)

خيرية (تسرع صائحة): لا ... لا تجلس على هذا الكرسي ...

الباشا: لماذا؟ ...

خيرية (مخفية ارتباكها): إنه بجوار النافذة وبرد الليل مضر لمن في سنك ...

الباشا: إني لست مسنًّا متهدمًا يا عزيزتي خيرية ... ومع ذلك أشكر لك هذا الحرص على صحتي (ينهض من الكرسي ويجلس على المقعد الكبير وظهره للستارة) ما دامت صحتي تهمك ... فأنا إذن أهمك.

خيرية (بفتور): طبعًا ...

الباشا: هذا تقدُّم كبير يا خيرية، لقد بدأ العقل يهديك ... وبدأت تقدرين حبي، وتدركين أن صدك لا معنى له ... وأن صداقتي خير لك وأبقى ... اعترفي أنك كنت مخطئة يوم أظهرت لي بعض النفور ...

خيرية: إني لا أنفر منك يا بابا ... ولكن ...

الباشا: بابا؟ ... أتلفظينها عمدًا؟ ... نبهتك كثيرًا إلى أن هذه الكلمة تجرح إحساسي ... تريدين إيهامي أيتها الخبيثة أني لا أصلح لك حبيبًا ...

خيرية: أرجوك ألا تتفوه بهذا الكلام المعيب الشائن المخجل البذيء ...

الباشا: حياؤك؟ ما أجمل احمرار خديك وأنت تقولين لي ذلك ... حياء العذارى يزيدك فتنة وإغراء ويزيد قلبي هيامًا ... خيرية، عثرت لك على بروش من الماس (يخرجه من جيب الروب) مبتكر الصياغة، لم يوضع مثله على صدر امرأة ... إنه يمثل شق القمر (ينهض ويدنو من خيرية) دعيني أضعه يستمد الحرارة من هاتين الشمسين الطالعتين من هذا الصدر ...

(يمد يده إلى صدرها ...)

خيرية (صائحة): لا تلمسني (الستارة تهتز قليلًا).

الباشا: لا تصيحي هكذا ... أتريدين أن توقظي والدتك والخدم؟ ...

خيرية: اخرج ...

الباشا: ما هذا الارتجاف في صوتك؟! ... إنك خائفة مني ...

خيرية: إنك لا ترى نفسك ... إن ما تأتيه لبشع ...

الباشا: أتعودين؟ ... لقد مضى الحديث في ذلك كما تعلمين ... إنك لن تصدي عنك غرامي بآرائك الصبيانية ... لقد صبرت أكثر مما ينبغي ومما أحتمل ... لقد كنت ضعيفًا أمام تمنُّعك وتعلُّلك ... وكنت أغادر في كل مرة خائبًا فارغًا ... حتى ولا قبلة صغيرة أنالها منك ... أقسم لك أني لن أتركك الليلة حتى أنال ...

خيرية: تنال شرفي! ...

الباشا: عدنا إلى هذه الكلمات التي تعكر الجو ... خيرية ... أنت تعرفين جوابي في ذلك ... أنا عندي أيضًا كلماتي المعكرة ... وإذا كنت تحرصين على سعادة أمك ...

خيرية: أعرف سلاحك الدنيء ...

الباشا: ماذا تقولين! ... لا يعنيني أن أسمع ... ما من شيء يخرج من شفتيك الرطبتين يسيئني أو يؤلمني ... أيتها النحلة المحبوبة، الذعي ما شئت ... فإن الذي يهمني هو عسل فمك! ...

خيرية: أنت يا من لا تعرف غير لغة الأخذ والشراء ... أريد أن أشتري منك طهري ... ماذا تطلب في مقابله ... كم أدفع لك فيه؟ ...

الباشا: أنا الذي أدفع في قبلة منك كل مال الأرض يا خيرية ... أرجوك ألا تسمي الأشياء بغير أسمائها ... أهنالك اليوم فتاة تتحدث هكذا عندما تجد الغرام ... إني لست غرًّا ... رجل حنكته الدنيا ... إذا رفضت حبي فمعناه أنك تحبين آخر ...

خيرية: آخر؟! ...

الباشا: نعم ... رجل آخر لا تكرهين أن تمنحيه فمك ... فمن هو إذن حبيبك الآخر الحقيقي أيتها الماكرة ...

خيرية: ليس لي حبيب ...

الباشا: أنا إذن حبيبك ... لأن هذا الهيكل البديع ... لا بد له من عابد يحرق البخور وينثر العطور ... خيرية ... هذا القمر الماسي لم يزل في يدي مظلمًا معتمًا ... دعيني أجعله يضيء في صدرك ...

(يمد يده بالمشبك الماسي إلى صدرها ...)

خيرية: ابعد عني أيها الرجل ... لا تلمسني ...

(الستارة تهتز بعنف ...)

الباشا: كل فتاة قالت هكذا ... وهكذا في أول الأمر صاحت ... وكان لا بد أن تؤخذ منها القبلات غصبًا ... لن يروعني صدك ... أنت لي يا خيرية ... لن تهربي الليلة من ذراعي ...

(يهجم عليها ليضمها فتدفعه عنها ... وتبرز عندئذٍ يد الشاب من خلف الستارة لتتناول الكرسي القريب ...)

خيرية (تلمح الستارة ويد الشاب فتصيح): لا ... لا ... لا تفعل ... لا تفعل ...
الباشا: لا تصيحي هكذا ... ستوقظين البيت ...
خيرية: لا تفعل ... من أجلي ... من أجلي ...
الباشا (متعجبًا): من أجلك؟ ... ماذا تقصدين؟ ... لماذا تنظرين جهة النافذة.
خيرية (حاضرة البديهة): أُلقي بنفسي منها ... إذا فعلت أنتحر ... أسامعني أنت؟ ... إياك ... إياك ...
الباشا (مصغيًا إلى ناحية الباب): أسمع صوتًا يقترب ...

(صوت الأم في الخارج يصيح ...)

الأم (من الخارج): خيرية ... أتصرخين ... ماذا بك؟ ...
الباشا (هامسًا بسرعة): تصنَّعي المرض يا خيرية ... بسرعة ... رأفةً بأمك ...

(خيرية تضجع على فراشها سريعًا ...)

الأم (تدخل): ماذا جرى (تنقل بصرها بين ابنتها وزوجها).
الباشا: يظهر أنها أصيبت ببرد وهي في السينما ... برد في الكلى ... وقد تنبهت أنا فبادرت إليها ... ولم نشأ إزعاجك ...
الأم (لزوجها): أشكر لك اهتمامك بها. (لابنتها) أتشعرين بألم يا خيرية ...
خيرية: لا يا ماما ... لقد زال الآن كل ألم ... إنه ليس بردًا في الكلى كما حسبنا ... إنها مجرد وخزة بسيطة عابرة في جنبي وانصرفت ...

الأم: هل أحضر لك شرابًا ساخنًا ...

خيرية: لا لزوم يا ماما ... لا أشعر الآن بشيء ... كل ما أحتاج إليه هو النوم والراحة.

الأم: لم تخلعي ملابسك بعد ... هل أساعدك على خلعها؟ ...

خيرية: أشكرك يا ماما ... سأخلعها بنفسي الآن ...

الباشا: دعيها تستريح ... فلندعها لتستريح ... هلمي بنا (يأخذ يد زوجته ليخرجا معًا).

الأم (تسحب يدها منه برفق): سأتبعك بعد قليل. عد أنت إلى فراشك ...

الباشا (وهو يخرج): لا تطيلي المكث هنا وهي متعبة ... إنها كما ترين في حاجة إلى الراحة (يخرج) ...

الأم (لابنتها): ألا تحتاجين إلى شيء يا خيرية؟ ...

خيرية: لا يا أماه ... اذهبي إلى فراشك أنت أيضًا ...

الأم (ترى المشبك وتتناوله): ما هذا البروش الملقى بجوارك ... هو طبعًا الذي أهداه إليك؟ ...

خيرية: نعم ...

الأم: الليلة؟ ... نعم، لا بد أن يكون الليلة ... لأني لم أره من قبل ...

خيرية: نعم ... الليلة ...

الأم (تضعه بجوار ابنتها): مبروك ... لديك الآن ثروة من جواهره يا خيرية.

خيرية: نعم ...

الأم: ما كنت أتصور يومًا أن يتفتح قلبه لك على هذا النحو ...

خيرية (تنظر إلى أمها مليًّا): ماذا تقصدين؟ ...

الأم: إنك لا شك تشعرين بمقدار عنايته بك يا خيرية ...

خيرية: نعم ... إنه شديد العناية بي ...

الأم: ألاحظ ذلك ... وها هو ذا نفسه يبادر إليك في جوف الليل ليسهر على راحتك ...

خيرية: إني ما أردت قط أن يهتم بي ذلك الاهتمام ...

الأم: أهذا شعورك حقًّا؟ ...

خيرية: أراك لا تصدِّقين ... ما عدت تصدقين ابنتك التي لم ترزقي غيرها ... ولكني أقسم يا أماه ... أقسم لك أن هذا شعوري حقًّا ...

الأم: يدهشني ذلك منك يا خيرية ... كم أتعذب بسببك ...

خيرية (تمسك بيد أمها): أعرف يا أماه ... أعرف ... ولو علمت كم أتحمل أنا من أجلك ... إن سعادتك يا ماما هي وحدها التي تلهمني الصبر وتدفعني إلى الرضا صامتة بما أنا فيه ...

الأم: بما أنت فيه؟ ... ماذا أسمع منك يا خيرية ... أنت حقًّا إلى هذا الحد لست سعيدة هنا ...

خيرية: سعيدة بجوارك أنت وحدك ...

الأم: يا لنكران الجميل! ... ماذا كنت تطمعين في أن يصنع لك كي يرضيك ... ألا تكفيك هذه الهدايا التي يغدقها عليك ... بمناسبة وغير مناسبة ... وهذه النزهات وهذه الملاهي التي يخرجك إليها في كل آن، وهذا الإغراق في الإعزاز والتدليل والحنان، وهذه اللهفة والحماسة والحرارة التي تبدو في نظراته ونبراته كلما حدثك أو دنا منك ... أو تعلق الأمر بك ... إذا صدق ظني فأنت معبودته الصغيرة ... أنت شغله الشاغل ... أنت كل ما في عقله وقلبه وفكره ... اسمك هو الكلمة الأولى التي يلفظها عند دخوله البيت ... إن ألذ لحظاته ساعة يجلس إليك ... إن كل ما يسره الآن أن يبقى بجوارك ... وكل ما يسعده أن يلصق بك دائمًا ... ولا يفارقك أبدًا ... إنه لمن الواضح يا خيرية أنك الآن كل شيء في حياته ...

خيرية (تنظر إلى أمها لتستشف ما وراء كلامها): وأنت يا ماما؟ ... أراضية بهذا؟ ...

الأم: ماذا تقصدين؟ ... أنا التي يجب أن ألقي عليك هذا السؤال؟ ...

خيرية: لا شيء يرضيني غير سعادتك أنت يا أمي ... هل أنت الآن سعيدة؟ ...

الأم: أرى أنك تكثرين من الحديث في سعادتي ... لا تشغلي بالك كثيرًا بأمري يا ابنتي ... هنالك أحوال لا يحق فيها لأم أن تفكر في هناءتها هي ... إنك وحيدة يا خيرية ... ولست أدري كيف أتصرف نحوك ... وما واجبي حيالك ... ولكني عظيمة الثقة بالله ... وبشجاعتك ... إن الحياة يا بنيتي لتضعنا أحيانًا في ظروف لا يستطيع غير الله وحده أن يجد لها مخرجًا ... لقد وضعت أمرك في يد الله ... وهو خير مصرف للأمور ... نامي الآن يا خيرية ... بملء جفنيك ... وأريحي نفسك وفكرك ... أتركك في حمى الله ... تصبحين على خير ...

(تقبلها وتخرج وتغلق الباب خلفها ... وعندئذٍ تقفز خيرية من مضجعها ويبرز الشاب من خلف الستارة ...)

خيرية (للشاب): سمعت حديثها؟ ...

الشاب: نعم ... ولم أفهم منه شيئًا ...

خيرية: ولا أنا ... إن موقف والدتي ما زال شديد الغموض ... لم أستشفَّ منها بعدُ إذا كانت تعرف أم تجهل ...

الشاب: يبدو لي أنها تجهل وأنها تحسب اهتمام هذا الوغد بك عطفًا أبويًّا ...

خيرية: أتظن ذلك ... أخشى أن تكون عارفة وتتجاهل ببراعة ... ولمَ لا تقول إن هذه الأم المسكينة تعرف ... ولكنها لا تدري كيف تتصرف! ... وهي تخاف أن تثيرها في هذا البيت عاصفة تنتهي بجرفنا جميعًا ... وفضيحتنا الشاملة في المجتمع ... إني أعرف والدتي ... سيدة متدينة ... شديدة الإيمان بالله ... وقد ورثت ذلك عنها ... نعم ... ربما آثرت إخفاء شعورها عن الجميع ... وترك الأمر لتدبير المولى وحده ...

الشاب: دعينا الآن من علمها بالحقيقة أو جهلها ... مهما يكن من أمرها فإن عليك أنت اليوم أن تحددي موقفك ... وأن تقرري شيئًا ...

خيرية: لست أرى غير شيء واحد ... أن وجودي في هذا البيت أمسى متعذرًا ... إن شجاعتي لن تخونني ... ولكني أخشى لؤم هذا الرجل وجرأته على سلوك كل سبيل دنيء ... كفاحي ضد مآربه الآثمة يجب أن يوضع له حد ... وشكوكي في أمر أمي التي قد تكون ملاحظة لكل شيء وتعيش صامتة تتعذب، يجب أن يوضع لها حد ... ما رأيك أنت؟ ...

الشاب: لقد رأيت لك الحل ... ولكنك فزعت وصحت بي صيحة دهتني ومنعتني من التنفيذ ...

خيرية: آه ... لا تذكرني ... عندما مددت يدك إلى الكرسي لترتكب جريمتك شعرت كأن روحي تسقط في الجحيم ...

الشاب: وأنا عندما لمحت من خلف الستارة يد ذلك الرجل تمتد إلى صدرك ... شعرت كأن نيران الجحيم كلها تأكل قلبي ... وأن دم هذا الرجل حلال كدم كافر يلقي الدنس على أعتاب حرم مقدس ...

خيرية: أعتاب حرم مقدس! ... يا له من تشبيه! ... يسرني أن أتلقى منك هذا التشجيع.

الشاب: العفو، أعترف أنه أمر مضحك حقًّا أن تتلقَّي ذلك التشجيع مني ... أنا الذي ما تشرفت بزيارتك إلا من هذه النافذة ... ولكن ثقي، على الرغم من كل شيء ... أني رجل بدأ يحس الآن الطهر يدب في روحه كأنه خمر ما كنت أظن الفضيلة تعدي كالمرض بهذه السرعة ...

خيرية: إنك لم تكن يومًا، فيما أعتقد، روحًا شريرًا ... ولكن الغضب أضلك وظُلم الأقوياء أعماك، والرأي الفاسد أغواك ... فأشرفت على الزلل ...

الشاب (بعد تفكير كالمخاطب نفسه)**:** كانت بالفعل زلة ... يداخلني إحساس غريب أني لا بد دافع ثمنها يومًا ...

خيرية: انسَ كل شيء الآن ... وتذكَّر فقط أني أنقذتك في الوقت المناسب ... وأن عليك أن تنقذني أنت بدورك ...

الشاب: هل تمكنيني حقًّا من إنقاذك؟ ... هل تصغين إلى نصيحتي هذه المرة وتنفذين ما قام برأسي الآن؟ ...

خيرية: ماذا قام برأسك الآن؟ ...

الشاب: قبل كل شيء اسمحي لي أن ألقي عليك سؤالًا ... هل تثقين بي؟ ...

خيرية (تنظر إليه مليًّا)**:** لست أدري ... لكن إذا استمعت إلى صوت شعوري الداخلي فإني أستطيع أن أثق بك ...

الشاب: ضعي أمتعتك في حقيبة ... واتبعيني ...

خيرية: إلى أين؟ ...

الشاب: إلى حيث تعيش والدتي ... إنها تعيش الآن بعد وفاة أبي مع أسرة أخي الأكبر ... إنه موظف، وتقطن مع زوجته وأولاده في حي السيدة زينب ...

خيرية: أتظن هذا حلًّا أن أعيش عالة على أسرة أخيك ...

الشاب: مؤقتًا حتى نبحث لك عن عمل ...

خيرية: نعم ... أريد أن أعمل ... وأن أحيا من عرق جبيني ...

الشاب: أعرف ذلك ... وأطالع أفكارك ... لأننا نلتقي في آراء كثيرة ... ونشترك في ظروف متشابهة ... لست أدري هل تصدقينني إذا قلت لك إنه قد تبيَّن لي الآن أن لا أمل لأمثالنا ... أنا وأنت ... إلا في العمل الشريف لنعيش.

خيرية: نعم ... الشريف ...

الشاب: تجيدين بالطبع لغة أجنبية ... إذن من السهل أن تعملي كبائعة في محل تجاري ...

خيرية: أفضل العمل في مكتبة ...

الشاب: أنت أيضًا؟ أرأيت إلى أي حد نتحد في الاتجاه والميول ... لقد يسرت مهمتي ... هذا ميدان أعرفه ... ولن يشق عليَّ أن أجد لك وظيفة بائعة أو صرافة في مكتبة ... ولكن لن تكون بالطبع في حي الحسين.

خيرية: في أي حي شئت ...

الشاب (مازحًا): لو كنت سمحت لي بسرقة جوهرة واحدة من جواهرك التي في هذه الخزانة ... لأنشأت أنا المكتبة ... ووضعتك أنت موظفة بالمحل.

خيرية: حذارِ أن تمس شيئًا مما في هذه الحجرة. يجب أن نترك لهذا الرجل كل جواهره وهداياه. لن أحمل معي غير ملابسي الخاصة الضرورية.

الشاب (جادًّا): هذا حقًّا ما ينبغي أن نفعله ...

خيرية: يسرني أنك طرحت أفكارك القديمة ... ونبذت مشروعاتك السابقة ... آه يا صديقي ... لقد قلتها أنت الساعة ... لن تكون سعادتنا ... أنت وأنا وأمثالنا ... من أصحاب النفوس الرفيعة ... إلا في الخبز الشريف والعرق الطاهر ... ثق يا صديقي أنه ليس ألذ طعمًا في الوجود كله من كسرة خبز اكتسبت بشرف ...

الشاب: يا صديقي! ... تقولين «يا صديقي»؟! ما أسعدني بهذه الكلمة! ...

خيرية: ولمَ لا ... أوَلسنا من نفس النوع والروح والطبقة ...

الشاب: هلمي بنا إذن ... إلى حقيبتك ...

خيرية (بتردد): الآن ... معك؟ ... نخرج معًا ...

الشاب: نعم ... معي، لكن انتظري ... أنت على صواب ... لدي اقتراح، سخيف بلا شك ... أو جريء ... أو فيه تطاول عليك ...

خيرية: قل ولا تخف ...

الشاب: لا ... لن أقول. إني ولا شك جننت ... نعم ... كل ما فعلت ورأيت وسمعت في هذه الليلة الغريبة كان عجيبًا وسريعًا ومفاجئًا إلى حدٍّ عطَّل في رأسي كل أداة للتفكير ... ما أنا الآن إلا إنسان لا يصلح إلا للإقدام على الأشياء الجنونية. حقًّا ... لم يعد بيني وبين مستشفى المجاذيب غير خطوة.

خيرية: قل كل ما يجول في خاطرك ...

الشاب: حتى وإن كان لا يقبله العقل الصحيح ولا الذوق السليم؟ ...

خيرية: نعم ...

الشاب: يجول في خاطري ... أني ... لو لم أكن هكذا بائسًا مضبوطًا متلبسًا بالشروع في سرقتك، لكنت رأيت أن أتقدم إليك بطلب ... يدك.

خيرية: طلب يدي؟ ...

الشاب: لأحمي سمعتك ... وأكافح من أجلك، ومعك ... بذلك لا تتعرضين لألسنة السوء وأنا أخرج إلى جانبك في الحياة الواسعة ... ولكني أسترد في الحال هذا الاقتراح

الجنوني ... وألتمس منك المغفرة على هذا التهجم المهين ... إنه لمن سوء الأدب أن أتجاهل الفارق الذي بيننا ...

خيرية: حقًّا ... إنه لفارق كبير ...

الشاب (خجلًا): نعم ... لم أفقد بعدُ كلَّ الوعي والبصر حتى لا أراه ...

خيرية: من حيث الأسرة ... كان المرحوم والدي موظفًا في الحكومة متوسط الحال ...

الشاب (دهشًا): كالمرحوم والدي تقريبًا ...

خيرية: من حيث الدراسة ... لم أذهب إلى الجامعة ولم أنل دبلومًا عاليًا ...

الشاب: أما أنا فذهبت ... وكدت أظفر بهذا الدبلوم ...

خيرية: ومن حيث الأخلاق ... فأنا لم تزل بي القدم ... ولم يضلني اليأس ... ولم يذهب عني الإيمان لحظة بقيمة المبادئ الفاضلة ...

الشاب: أما أنا فمع الأسف ...

خيرية: هذا هو الفارق الوحيد الذي بيننا ...

الشاب (بتأثر صادق): صديقتي ... ائذني لي في أن أناديك باسمك مرة ... خيرية ... أعاهدك وأقسم لك أني سأكون مدى الحياة جديرًا بك ...

خيرية: أصدِّقك ...

الشاب: هلمي بنا إذن ... حياتي لك منذ هذه اللحظة ... ضعي ثيابك في حقيبتك ولنذهب توًّا إلى حيِّنا ... فنوقظ المأذون لعقد زواجنا ...

خيرية (تتحرك إلى خزانة الملابس): ساعدني في إعداد الحقيبة (وهي تخرج ثيابها) أواثق أنت أني لن أزعج حياتك ... ولن أكون عبئًا على كاهلك؟

الشاب (بفرح): واثق أني سأكون شخصًا أسمى وقلبًا أنبل ... نسيت أن أطلعك على خبر ... بعد تركي لعملي القديم عرضت مكتبة أخرى أن أعمل فيها بمرتب شهري عشرة جنيهات ... فإذا عملت أنت أيضًا ... فلن يكون مرتبك أقل من ستة جنيهات ... أفلا تعتقدين أن في مقدورنا أن نكون سعداء بستة عشر جنيهًا ...

خيرية: وأنا نسيت أن أطلعك على خبر ... إني أحسن الطهي بأقل نفقة ... وأجيد تفصيل ثيابي وثيابك ... وأحذق تنظيم البيت ... انظر ... ألا ترى حجرتي هذه منظمة ... سأجعل بيتك أجمل نظامًا ولو كان غرفة فوق سطح ...

الشاب: وسأقتصد أنا في مصروفي ... فأنا، كما أحب أن تعلمي، لا أدخن ولا أجلس في مقهى ... لقد كان عملي مستغرقًا كل وقتي ... إني شاب مستقيم ... وما أوفره من مصروفي أستطيع به أن أدعوك إلى السينما مرة كل شهر ...

خيرية: كل شهرين، لا تكن زوجًا مسرفًا متلافًا. تعلَّم الاعتدال وإلا اضطررت إلى تعليمك كيف تعيش بحكمة ... هنالك أنواع من النزهة في الهواء الطلق لا تكلف قرشًا ... دعني أدبر كل ذلك ... والآن افتح لي الحقيبة من فضلك ... ولا تقف هكذا مكتوف اليدين (يسرع هو إلى الحقيبة) لا تنتظر مني تدليلًا في كل وقت ... أسرع ... يا ... عجبًا ... ما اسمك؟ ... كل شيء تحدثنا فيه ... وبحثناه ودبرناه ... إلا شيئًا واحدًا نسيت أن أعرفه منك ... اسمك! ...

الشاب: خير لك أن تعرفي نفسي قبل أن تعرفي اسمي ... وإن كان عكس ذلك هو الذي يحدث عادة بين الناس ... اسمي يا خيرية ... لا بريق فيه ولا رنين ... «حامد حمدي حسنين» ...

خيرية: إنه عندي ذو بريق ... ما الاسم للنفس إلا كالزجاج للمسرجة، يضيء بضوئها ... هلم بنا يا «حامد»، لا أحسب أني نسيت شيئًا مما احتاج إليه ... بل انتظر ... ناولني هذا المصحف ...

حامد (يسرع إلى المصحف ويناوله إياها)**:** أول شيء لمسته يدي في حجرتك.

خيرية (حاملة المصحف في يدها ... تعبر رأسها فكرة)**:** حامد! ...

حامد: ماذا بك يا خيرية؟ ...

خيرية: الآن ... وأنا أحمل هذا الكتاب المطهر تذكرت شخصًا ... أمي ... كيف أخرج الساعة معك ... وأتركها هكذا نهبًا للهواجس؟ ... لا ... لا بد أن أمكث الليلة في هذا المنزل ... فإذا طلع النهار حاولت أن ألمح لوالدتي أو أصرح لها بعزمي على الاستقلال بحياتي ... يجب يا حامد أن أمهد الأمر هنا قبل الرحيل ... حتى تستطيع أمي أن تواجه على الأقل من يسألها عن غيبتي ...

حامد: أترين ذلك ...

خيرية: وأنت؟ ... ألست ترى أنني على صواب في هذا؟ ...

حامد: هذا هو المعقول حقيقة ... لا بد أن تطلعي والدتك على ما انتويت ... أما زوجها فحذارِ أن يعلم ... تستطيع والدتك أن تخترع حجة مقبولة فتقول له مثلًا بعد ذهابك ... إنك في ضيافة أهل أبيك ...

خيرية: هذا ما سأصنع ...

حامد: أتركك الآن إذن يا خيرية ... لكن ... كيف ألقاك غدًا؟ ...

خيرية: تعال قبيل الظهر في غيبة ذلك الرجل ... من الباب الكبير طبعًا ... وقل للخدم (بائع الكتب) ...

حامد: إلى الغد إذن يا خيرية ... ولا تنسي أني خطيبك أمام الله ...
خيرية: لن أنسى ذلك أبدًا ...

(يتناول يدها ويقبلها بإجلال ... ثم يتجه إلى النافذة.)

خيرية: ماذا تفعل؟ ... أتخرج من هنا؟ ...
حامد: كيف أخرج إذن؟ ...
خيرية: من الباب يا عزيزي ... لا ينبغي لخطيبي أن يتسلق النوافذ بعد اليوم ... اتبعني وأنا أخرج بك بلا جلبة من باب البيت ...

(تقوده وتخرج به من الحجرة ... ويخلو المكان ... ويسمع في الخارج صوت باب خارجي يفتح ... ولا تمر لحظة حتى يدخل الباشا الحجرة شبه راكض يبحث بعينيه في أرجائها ... ثم يسرع إلى النافذة يطل منها.)

خيرية (تدخل وتبغت لوجود الباشا): ماذا تفعل هنا؟ ...
الباشا (يستدير): وأنت أين كنت ومن الذي خرج الساعة من الباب الخارجي.
خيرية (متهربة): أتريد أن توقظ ماما مرة أخرى؟ ...
الباشا (بحدة): أجيبي على سؤالي ... من كان هنا معك؟ ... ومع ذلك لا حاجة بي إليك لأعرف سرَّك ... (يحدق ببصره من النافذة) أرى شبح رجل يتخبط في الحديقة كلص ... عشيقك بالطبع ...
خيرية: خسئت أيها ... أيها الظالم ...
الباشا (يترك النافذة والحجرة ويهرع إلى الخارج صائحًا): اللص ... إلى اللص ... إلى اللص ...

(ويسمع الباب الخارجي يفتح ... ولا تمضي لحظة حتى يدوي طلق ناري في الحديقة ثم ضجة أهل المنزل وهم يهبون صائحين لاغطين ...)

خيرية (تسرع إلى النافذة): يا ربي ... يا ربي ... رحمتك بي و... به.

(تحدق في الحديقة المظلمة وفجأة تسمع صوتًا هامسًا.)

حامد (يهمس من الحديقة تحت النافذة): خيرية! ...
خيرية (تطل عليه هامسة): أنت؟ ... تزحف إلى نافذتي ...

(تظهر بعد قليل يداه تتسلقان النافذة ... ثم يبدو رأس حامد وهو شاحب الوجه ...)

حامد (بصوت هامس متمزق): لا تغضبي يا خيرية ... هذه آخر مرة أتسلقها ... لأراك ...

خيرية (جزعة ملهوفة): حامد ... ما هذا الدم في صدرك؟ ...

حامد (منتزعًا ابتسامة): قتلني ... ولكني ... دفعت ... ثمن ... زلتي ...

(تترك يداه النافذة ويسقط جثة في الحديقة ...)

خيرية (تضع كفها على عينيها وتبقى بلا حراك ... ثم تقع بلا حراك ... ثم تقع متهالكة على المقعد الكبير هامسة): رباه ... ما أبهظ الثمن الذي ندفعه نحن ... لنكون شرفاء! ...

ستار

الفصل الثاني

(بهو منزل الباشا ... سلم كبير يؤدي إلى الطابق الثاني ... أبواب جانبية تؤدي إلى حجرات ... وباب كبير يؤدي إلى الحديقة وهو مدخل الفيلا ... رياش فاخرة ... وتليفون فوق منضدة ...)

(خيرية واقفة بقرب باب حجرة مغلقة وهي في قلق تتسمع ... بينما الباشا يوافيها كاظمًا ما يجيش في نفسه ...)

الباشا (في سخرية خفية): إنه لم يزل على قيد الحياة! ...

خيرية (هامسة من بين أسنانها): أيها القاتل ...

الباشا: لم أقتله ... لقد رأيت وجهه ... وهم يدخلون به الساعة من الحديقة إلى هذه الحجرة ... ما هو بوجه شخص سيموت ...

خيرية: سنعرف الحقيقة عندما يخرج الطبيب من الحجرة ...

(تلتفت إلى باب الحجرة كالمترقبة ...)

الباشا: يا له من اهتمام رائع ... من غادةٍ بلصٍّ ...

خيرية: إنه ليس لصًّا ...

الباشا: بائع كتب! ... جاء يعرض كتبه المحشوة بالعلوم والمعارف والفلسفة والحكمة والأدب ... في الهزيع الأخير من الليل ...

خيرية: ليس هذا وقت السخرية منه ...

الباشا: ربما ... ولكنه على كل حال وقت التحري عن شخصيته البارزة ... وعن موقفه الشريف ...

(يتجه إلى آلة التليفون ...)

خيرية (تهرع إليه في جزع): ماذا أنت صانع؟ ...
الباشا (ويده تمتد إلى السماعة): أبلغ البوليس! ...
خيرية (تمسك بيده مرتاعة): البوليس؟! ...

(تظهر الأم تهبط السلم وفي يدها لفافة ...)

الأم: هذا كل ما وجدت الآن عندنا من قطن طبي ... أيكفي هذا يا خيرية؟ ...
خيرية (وهي شاردة): اسألي الدكتور يا ماما ...
الأم (تلمح السماعة في يد الباشا): من تريد أن تخاطب بالتليفون؟ ...
الباشا: البوليس ...
الأم (وقد لمحت خيرية وهي تجذب يده): ولماذا تمنعينه يا خيرية؟ ...
خيرية: اقترحت عليه أن يتمهل حتى نتحقق من مدى الإصابة ...
الأم (للباشا): الحق معها يا محمود ... ما الداعي إلى العجلة ... ربما كانت الإصابة خفيفة وأمكن تسوية الموضوع بغير حاجة إلى إثارة ضجة ...
الباشا: تسوية «الموضوع» بالنسبة إلى من؟! ...
الأم: بالنسبة إلى الجميع ...
الباشا (يلتفت بعينيه إلى خيرية): لمصلحة من؟ ...
خيرية: لمصلحتك أنت ... لا تنسَ أنك أطلقت الرصاص على هذا الشخص ...
الباشا: القانون يعطيني هذا الحق ...
خيرية: إذا استطعت أن تثبت أنه جاء بقصد السرقة ...
الباشا: هو الذي عليه أن يثبت ذلك القصد الكريم، الذي أدخله هذا البيت في هذه الساعة المتأخرة! ...
خيرية (بنبرة ذات معنًى خفيٍّ ردًّا على نبرته ذات المغزى الخفي): ... قد لا يجد صعوبة في إثبات ذلك ...
الباشا: هناك جهة وظيفتها تحرِّي المقاصد النبيلة، وتقصي الأغراض السامية، هذه الجهة يسمونها «البوليس والنيابة»! ...

(يتجه إلى آلة التليفون ...)

خيرية (في رعدة): وما وجه الإسراع يا بابا؟ ...

الباشا: وما وجه الإبطاء ...

الأم: خيرية حريصة على سمعتك ... يا باشا ...

الباشا (بنبرةٍ ذات مغزًى وعيناه إلى خيرية)**:** سمعتي أنا؟ ...

الأم: إنها لا تريد لك أن تقف أمام البوليس موقف السؤال ... على أي شكل من الأشكال ...

الباشا: عواطف رقيقة ... فلتطمئن عزيزتي خيرية ... إن موقفي أمام البوليس هو موقف صاحب القضية الذي يريد ويشكو ويتهم ...

خيرية: تشكو ماذا؟ ... هل سرق منك شيء؟ ...

الباشا: أكان يجب أن أنتظر حتى تُرتكب الجريمة؟ ... يكفي أن أضبط في بيتي اللص ...

خيرية: إنك لم تضبط في بيتك لصًّا ... ولكنك أطلقت النار على شخص يمشي في الحديقة ...

الباشا: في الحديقة؟ ... يا لعواطفك الرقيقة! ... لعله أيضًا شاعر ... يمشي يترنم في الحديقة وينشد في ضوء القمر ... ولو أننا في أواخر الشهر العربي ولكن هذا لا يهم ... فقمر الشاعر لا يضيء حسب الشهور الهجرية أو النتيجة الرسمية ... ولكنه يراه حسب مواعيد أخرى ... إنك يا خيرية تغلفين الحقائق في ثياب من الحرير الناعم ... ما أسعد حظ ذلك الذي تتولين عنه الدفاع ...

خيرية (في حمرة تنظر إلى أمها ثم إليه)**:** لست أتولى دفاعًا عن أحد ... ولكني أرى هذا الحادث لا يستوجب منك كل هذا الجد والعنف ...

الأم: حقًّا يا محمود ... رجل وجد في الحديقة ... ماذا كان عليك لو أخذت الأمر باللين والتؤدة ... ولم تلجأ إلى القوة وإطلاق النار ... عهدي بك راجح العقل ... واسع الحيلة ... كثير الاتزان ... ما الذي دفعك إلى هذا التصرف العنيف؟ ...

الباشا: أتستطيعين أن تجيبي ... يا خيرية؟! ...

خيرية: لعله الوهم ... لقد تخيلت شيئًا لا وجود له ...

الباشا: أرجو ذلك يا خيرية ... وإن كنت أرى من القرائن أن مخاوفي كانت في موضعها ...

خيرية: لا ينبغي أن تحكم بما يقوم في رأسك من وهم ...

الباشا: ليس وهمًا، بل ها هو ذا رجل قد وُجد بلحمه ودمه. ماذا تقولين فيه؟

الأم: كان يجب أن تناديه في الحديقة أولًا ... وأن تسأله ...

الباشا: وأن أقدم له سيجارة ... وأدعوه إلى تناول فنجان من القهوة ... في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل! ...

خيرية: بل تتركه وشأنه ... وعلى البواب والحراس أن يقبضوا عليه ... إذا وجدوا في أمره ما يريب ...

الباشا: آسف إني لم أدَعه يذهب معززًا ... ولم أوصله بنفسي إلى الباب الخارجي مشيعًا بالتجلَّة والإكرام ... لأستحق بعدئذٍ تقدير الآنسة خيرية ...

خيرية: لتستحق راحة ضميرك! ...

الباشا: ضميري مستريح ... ثقي بذلك ... فقد قمت بالواجب الذي تفرضه عليَّ كرامتي! ... وكرامة هذا البيت! ...

الأم: وهل كرامة هذا البيت يخدشها حادث مثل هذا؟ ...

الباشا (يشير إلى خيرية)**:** سلي ابنتك! ...

الأم: لست أفهم ... أفهمت أنت يا خيرية؟ ...

خيرية: لعله يعتقد أن دخول هذا الرجل فيه اعتداء على كرامة البيت ...

الباشا (لخيرية بنبرةٍ ذات معنًى)**:** وأنت ألا تعتقدين ذلك؟ ... دخول رجل لا في الحديقة ... بل في حجرة داخل هذا البيت ... افرضي أن رجلًا دخل حجرتك في ساعة متأخرة من الليل ... ألا ترين في ذلك اعتداء على كرامتك؟ ...

خيرية (بنبرةٍ ذات مغزًى)**:** أترك لك أنت الجواب عن هذا السؤال! ...

الباشا (يباغَت ولكنه يتمالك)**:** صدقت ... أعرف رأيك ...

خيرية (في لهجةٍ ذات معنًى)**:** أرجو أن نكون الآن متفقَين في الرأي.

الباشا (بنفس اللهجة)**:** لا تنسَي أن الظروف مختلفة كل الاختلاف ...

خيرية: الظروف واحدة ... لا يوجد اختلاف إلَّا في وجهة النظر ...

الأم: ما الداعي إلى كل هذا الخلاف بينكما ... هو يرى أن يبلغ ... وأنت لا ترين ذلك ... ربما كان الباشا أدرى بالظروف يا خيرية ... دعيه يفعل ما يريد ... ما الذي يهمك أنت من هذا الأمر ...

الباشا: حقًّا ... سليها هذا السؤال ...

خيرية (مرتبكة)**:** طبعًا ... لا شيء ... ولكن ... ألم نتفق على تأجيل التبليغ؟ ... إلى أن نعرف مدى الإصابة ويقول لنا الطبيب شيئًا عن حالة هذا الشخص، هل سيموت؟ ... هل سيعيش؟ ...

الباشا: وما الذي يهمك أنت من هذا الشخص؟ ... مات أو عاش؟ ...

الأم: حقًّا ... ماذا يهمك أنت يا خيرية ... لماذا تشغلين بالك بهذا الحادث ... فلنضع المسألة في يد الباشا فهو أخبر منا بهذه الأمور ...

الباشا: نصيحة ثمينة من أم ... لعلك تصغين إليها ...

(يتجه إلى التليفون ...)

الأم: إذا أردت رأيي يا خيرية ... فاذهبي توًّا إلى فراشك ... فأنت لا تتحملين السهر الطويل ...

خيرية (تتبع بأنظار قلقة الباشا وهو يضع يده على السماعة فتلفظ صيحة مكتومة): إلهي ...

(عندئذٍ يفتح باب حجرة جانبية ... ويبرز رأس الطبيب.)

الطبيب (بعجلة): القطن ... من فضلكم ... القطن ...

الأم (مبادرة إلى الطبيب): معي يا دكتور في يدي ... كان يجب أن أسرع به إليك.

الطبيب (وهو يتناول): شكرًا ... هل لي أن أطلب معونتك لحظة ...

(تدخل الأم مع الطبيب ويغلق باب الحجرة ...)

خيرية (تهرع عندئذٍ إلى الباشا وتضع يدها على التليفون): لن تبلغ البوليس ... أعرف نواياك ... تريد أن تنتقم ... تريد أن تلوث اسم هذا الشاب وتزج به في السجن ...

الباشا: عشيقك! ...

خيرية: خسئت ... لا تقل هذه الكلمة ...

الباشا: مخاوفي كانت في محلها ... ما كنت أرى لصدك معنى، إلا أن يكون في حياتك رجل ...

خيرية: ليس في حياتي رجل ...

الباشا: هذا الشاب ... كيف دخل هنا؟ ...

خيرية: لست أدري ... لم أره ساعة جاء ...

الباشا: ولماذا جاء؟ ...

خيرية: جاء يقترض مني نقودًا ...

الباشا: بعد منتصف الليل! ...

خيرية: ربما جاء مبكرًا ... فلما لم يجدني انتظر عودتي.
الباشا: في الحديقة؟ ... أو في ... حجرتك؟! ...
خيرية: لست أدري ... أين وجدته أنت؟ ...
الباشا: سمعتك تخرجينه من هذا الباب! ...

(يشير إلى باب البهو المؤدي إلى الحديقة ...)

خيرية: سمعت هذا الباب يفتح ... هذا كل ما تستطيع أن تسمع ...
الباشا: ووجدت حجرتك خالية منك ...
خيرية: خرجت أشيعه في الحديقة ...
الباشا: ووجدت نافذتك مفتوحة ... ووُجد هو عقب الإصابة، ملقًى تحت النافذة!
خيرية: لقد تسلَّق كي يخبرني بفعلتك ...
الباشا: روميو يتسلق نافذة جولييت ...
خيرية: لا تسخر من هذا البائع الفقير الذي ألقته المقادير في يدك ...
الباشا: بائع كتب ... قلت لي أين؟ ...
خيرية: في مكتبة بحي الأزهر ... اشتريت منها مصحفي.
الباشا: معرفة وثيقة ... تتيح له تسلُّق النوافذ ... واقتراض النقود ...
خيرية: إنه شاب بائس ... لو عرفت قصته لرحمته ... ولكن ... أين لقلبك أن يعرف الرحمة بمثله؟! ...
الباشا: حسبه قلبك أنت! ...
خيرية: ثق أني منذ رأيته لأول مرة في المكتبة، لم أره إلا الليلة ... على غير انتظار ... كانت مفاجأة لي ...
الباشا: مفاجأة سارة تزري بكل ما عداها. بل كل مفاجأة أخرى إلى جانبها رخيصة!
خيرية: إنك تخطئ لو ظننت أن بيني وبينه علاقة سابقة ...
الباشا: العلاقة الحاضرة بينكما تكفيني ... فهي على فرض حداثة عهدها بادية النمو، غائرة الحدود، دانية الثمار ...
خيرية: لا تبالغ ... لا تبالغ ...
الباشا: دعيني إذن أنتزعها من أصولها ...
خيرية: تنتزع ماذا؟ ...

الباشا: هذا السد الذي يقوم بيني وبينك، لا بد من تحطيمه ...

خيرية: إن الغيرة تعميك ...

الباشا: لن يأخذك هذا الشاب مني ... إني أعرف أين ألقي به ...

خيرية: في أعماق السجون ...

الباشا: سأتخير له مكانًا يليق به! ...

خيرية: إني أمنعك ... لن تستطيع أن تناله بسوء ... لن تمس منه شعرة ... لن تمس منه شعرة ...

الباشا: يا للشرر المتطاير من عينيك! لكأنك هرَّة تذود عن صغارها. هنيئًا له، هنيئًا له.

خيرية: أراك مقدمًا على شر ... أرني ماذا في مقدورك أن تصنع.

الباشا: تتحدين الآن؟ ... أنت تعرفين ما أنا صانع! ...

خيرية: ستبلغ البوليس؟ ...

الباشا (وهو يرفع السماعة): نعم.

خيرية (بعزم): بلِّغ وأسرع.

الباشا (يلتفت إليها مباغتًا): مرحى! ... مرحى! ... هذا شيء جديد ... لا تخشين التبليغ الآن.

خيرية: لا ... لأني أعرف ما سأقول أمام البوليس والنيابة.

الباشا: ماذا ستقولين؟

خيرية: سأقول إن هذا الشاب لم يدخل بقصد السرقة. بل دخل لأنه خطيبي أمام الله.

الباشا: خطيبك أمام الله!

خيرية: أيستطيع القانون أن يدينه في هذه الحالة؟

الباشا: أوَحدث هذا حقًّا؟ ... أم هي فكرة نيرة لإنقاذ الشاب من ورطته؟

خيرية: فليكن هذا أو ذاك ... المهم هو أن تصريحي هذا في التحقيق سيوقعك أنت في ورطة كبرى.

الباشا: يوقعني أنا؟

خيرية: لقد أطلقت الرصاص على خطيبي ... فعليك أن تثبت أنك لم تقصد إصابته عمدًا لغرض في النفس!

الباشا: غرض في النفس ... ستقولين بالطبع سر تفاصيله.

خيرية: بكل دقة وصراحة! ...

الباشا: يا لك من ماكرة ... قصيرة النظر! ...

خيرية: بل بعيدة النظر ... أعترف أني بذلك سأثيرها فضيحة في المجتمع ... تلوث اسمك، وتقضي على سمعتك ... وتجرفك من فوق مقاعدك العديدة في مجالس الشركات.

الباشا: خنجر حادٌّ حقًّا ... ولكنه سيصيب قلبًا آخر ...

خيرية: قلب من؟

الباشا: قلب أمك.

خيرية: أمي؟!

الباشا: خنجر ذو حدين. لأن الفضيحة ستكون فضيحتك أنت، قبل أن تكون فضيحتي ... وستفجع أمك في بنتها وزوجها في آن ... لست أنت التي تتحدَّين ... بل أنا الذي أتحدى ... التليفون أمامك ... اطلبي بنفسك البوليس وبلغيه أن خطيبك قد أُطلق عليه الرصاص، وأن الجاني هو محمود باشا نعمان.

خيرية (هامسة بلا حراك)**:** أمي! ...

الباشا: ما لك وجمت! ... أقدمي ... نفذي تهديدك.

خيرية: وأخيرًا ... ماذا تنوي أن تصنع بي؟

الباشا: بك أنت لا شيء ... إنك أعز عليَّ من أن أفكر في إساءتك ... لقد رأيت الساعة كيف كنت أداري الأمور أمام أمك ... حتى لا تفطن إلى مرمى كلامنا ... ألم تفهمي من ذلك أني حريص عليك. ضنين بك ولكنك دائمًا سيئة الظن بي ... متى تدركين أني لك محب مخلص ... وأن مصلحتك في أن تكوني لي صديقة ... إني أريدك يا خيرية ... لقد أقسمت على ذلك، ولن يقف أحد ولا شيء في سبيلي أبدًا. وإني أعني ما أقول.

خيرية (تنظر إليه يائسة وتقول كالمخاطبة نفسها)**:** أرى أنك تعني ما تقول.

الباشا: لا فائدة من مقاومتي يا خيرية.

خيرية (تطرق مليًّا مفكرة ... ثم ترفع رأسها)**:** أوَما من طريقة عندك غير البطش بهذا البريء المسكين.

الباشا: خطيبك أمام الله.

خيرية (وقد غيرت لهجتها)**:** يدهشني كيف ذهبت فطنتك ... ألم تسائل نفسك عن السبب الحقيقي الذي من أجله أدافع عن هذا الرجل وأتمسك به.

الباشا: لأنك تحبينه.

خيرية: في نصف ساعة؟! ... أيمكن أن تصدق هذا؟

الباشا: لأنك تكرهينني.

خيرية: أكره من يمنحني قلبه ... ويغمرني بعطفه وهداياه؟

الباشا: ألا تكرهينني؟ إنك تحيرينني ... لماذا إذن تدافعين عن هذا الرجل؟

خيرية: لأن فكرة هبطت عليَّ ساعة رأيته الليلة!

الباشا: ما هي هذه الفكرة؟

خيرية: أن أتزوجه.

الباشا (بدهشة)**:** تتزوجينه؟!

خيرية: من أجلك.

الباشا: من أجلي؟!

خيرية: نعم من أجلك ... ألم تفهم قصدي؟

الباشا: أفهم ... ولكني ... لا أصدق.

خيرية: لأنك أنت الذي تسيء الظن بي دائمًا ... إنك على الرغم من خبرتك التي تتحدث عنها ... وحنكتك وتجاربك في الحياة، تفوتك أبسط الأشياء. كيف كنت تريد مني أن أبادلك العطف تحت سقف هذا البيت؟ ... وعلى أي وضع من الأوضاع تطلب ذلك ... لقد نسيت أني فتاة لا بد لها من زوج ... أفهمت؟ ... لو كنت تنظم شركاتك هناك كما تنظم أمورك هنا لما شككت في أنها شركات مخفقة خاسرة ... هل أدركت الآن كيف أنه كان يجدر بك أن تنظم وضعي أولًا، وأن تجعلني في إطار اجتماعي مفهوم، قبل أن تأتي لتطرق بابي وتطلب عطفي.

الباشا (يتأمل كلامها)**:** معقول ...

خيرية: ما هو الترتيب الذي قمت أنت به في هذا السبيل؟ ... لا شيء. كان عليَّ أن أفكر فيه أخيرًا.

الباشا: ولماذا لم تنبهيني إلى هذا قبل الليلة؟

خيرية: أتظن حياء المرأة وكبرياءها يسمحان لها في كل الأحوال بهذه المصارحة؟! إن المرأة تحب دائمًا أن تشعر أن الرجل هو الذي يفكر لها ويدبر، وليست هي التي تفكر وتدبر له.

الباشا: ولكني لم ألمس منك حركة أو نظرة أو إشارة تنم على شيء غير الصد والنفور.

خيرية: ما من شيء ينفر المرأة الرقيقة مثل الأسلوب الهمجي، الخالي من الكياسة واللياقة والذوق ... إن المرأة المهذبة تهمها الطريقة قبل الغاية ... وإن من الرجال من يستطيع الوصول إلى قلب المرأة التي يريدها، إذا استطاع أن يغطي أشواك هذا الطريق

بحرير من المظاهر السليمة والأوضاع المقبولة ... إن المرأة تحب قبل أن تمنح قلبها أن تعتقد أنها لا تأتي أمرًا يسقطها من الأعين.

الباشا: صدقت في هذا يا خيرية ... لقد ظننت أني ...

خيرية: لقد ظننت أنك بالهدايا تصل إلى قلبي ... إنك مخطئ ... هذا أسلوب ينفع مع الغواني والخليعات ... غلطتك الكبرى؛ هي أنك تحسب المال كل شيء ... لأنك به تشري الأسهم في الشركات ... لكن ثق أن الأسهم التي تصيب بها القلوب لا تُشترى دائمًا بالأموال.

الباشا: حقًّا ... أنت امرأة ليست كالأخريات.

خيرية: كان يجب أن تعرف أن المرأة ذات الكرامة لا تقبل الحب إلا من الرجل الذي يشعرها بأنه مقدر لظروفها ... حريص على مظهرها، أمين على سمعتها ... إن المرأة كالطاووس ... لا بد لها من ثياب من الريش الزاهي الجميل، يغطي جسمها ويستر تصرفاتها.

الباشا: نعم ... يجب أن أفكر لك قبل كل شيء في زوج وفي بيت.

خيرية: هل ثُبْت الآن إلى صوابك ... وأدركت حقيقة موقفي؟

الباشا: وما الذي جعلك تتخيرين هذا الشاب بالذات؟

خيرية: لم أتخيره ... ولكنه هو الذي جاء ... وهبط علينا الليلة من السماء ... فحرك في رأسي الفكرة.

الباشا (يهرش في رأسه): فكرة في الحق، لا بأس بها. فهو على الأقل ...

خيرية: واقع في أيدينا ... مدين لنا ... من طراز يلزمنا وينفعنا.

الباشا: آه ... إن رأسك الصغير لا يخلو من عبقرية.

خيرية: في استطاعتك أن ترفعه إلى مستوانا ... كما فعلت بكثير من محاسبيك الذين وزعتهم في الشركات.

الباشا: سيكون مديرًا ... في بضعة أشهر، لشركة ناجحة.

خيرية: وسيكون لي بيت.

الباشا: يليق بك وبزياراتي لك!

خيرية: لن تزورني في البيت بالطبع إلا نهارًا.

الباشا: مفهوم ... منذ اليوم لن تفوتني اللياقة ولا الكياسة ... سأدبر المسكن الآخر الذي سيكون في يدك مفتاحه.

خيرية (وهي تطرق): أخفِ هذه الأشياء عني الآن.

الباشا: حقًّا ... لا مؤاخذة ... من اللياقة والكياسة أن أفاجئك بها في حينها ... والآن كيف ننفذ هذا المشروع؟ ...

خيرية: اترك لي أنا الأمر فيما يختص بالشاب ... المهم أمي.

الباشا: أمك ... أنا أتولى عرض الأمر عليها وإقناعها.

خيرية: ماذا ستقول لها؟

الباشا: سأقول إن هذا الشاب لقطة.

خيرية: ما هذا الكلام؟

الباشا: دعيني أتصرف في الوقت المناسب. أنا لا أستطيع أن أعد الكلام قبل أوانه ... حتى عند انعقاد الجمعيات العمومية لشركاتي ... لا أحب تحضير خطبي مقدمًا ... براعتي هي الارتجال ... أنا مرتجل من الطبقة الأولى ... سترين الآن حججي الدامغة أمام أمك، تخرج من رأسي ومن فمي بدون وعي.

خيرية: بدون وعي! ... بل يجب أن تزن الكلام.

الباشا: سيخرج موزونًا أربعة وعشرين «قيراط»! ...

(باب الحجرة يفتح وتظهر الأم.)

خيرية (هامسة): أمي.

الباشا (يتنحنح توطئة للكلام): كيف حال هذا الشاب المهذب المؤدب، الحلو الشمائل، الكريم الخصال؟

الأم (تنظر إليه بدهشة): ماذا تقول؟

خيرية (تسرع): ماما ... ما رأي الطبيب؟ ... أحالته خطرة؟

الأم: أبدًا ... الإصابة سطحية جدًّا.

الباشا: اللهم لك الحمد ... إن في فقد هذا الشاب خسارة جسيمة.

الأم: من حسن حظه أنه لم يصب إلا بخدش بسيط.

الباشا: بل هذا من حسن حظنا نحن.

الأم: اطمئن الآن ... المسألة لم تعد تستحق أي تبليغ.

الباشا: بل لا بد من التبليغ.

الأم: تبليغ البوليس؟

الباشا: بل تبليغك أنت.

الأم (في دهشة)**:** تبليغي أنا؟ بماذا؟

الباشا: بالخبر السار.

الأم (في عجب)**:** أي خبر سار؟!

الباشا: خبر الخطبة ...

الأم: خطبة من؟!

الباشا: ما رأيك في هذا الشاب؟ ... ألم تلاحظي أنه مؤدب، مهذب، وديع، مطيع؟

الأم: لم ألاحظ شيئًا ... فقد لزم الصمت ولم نتبادل الحديث.

الباشا: أما أنا فقد لاحظت من أول نظرة ... قرأت على وجهه الدماثة والطيبة والتربية العالية.

الأم: سمعتك الساعة تصفه بأنه لص.

الباشا: قول مرتجل لا وزن له ولا أساس له من الصحة.

الأم: مهما يكن من صفته فالمهم أن ينتهي الحادث بسلام.

الباشا: بل يجب أن ينتهي بالأفراح والليالي الملاح!

الأم: ما الذي جرى لك؟

الباشا: هنئي خيرية! ...

الأم (بدهشة)**:** أهنئ خيرية؟! ... بماذا أهنئها؟

خيرية (للباشا)**:** طريقتك هذه في الارتجال، تجعل كلامك كما ترى، غير مفهوم.

الأم: في الحق أني لست أفهم شيئًا.

الباشا: المسألة بالاختصار أن هذا الشاب هو خير زوج لخيرية.

الأم: ماذا حدث لعقلك يا محمود! ... ابنتي الوحيدة لا أجد لها زوجًا غير هذا الذي ...

الباشا: هذا الذي ماذا؟

الأم: الذي ضُبط الليلة في هذا البيت.

الباشا: من قال لك إنه ضُبط ... هذه وشاية دنيئة ... هذه معلومات مستقاة من مصادر مغرضة.

الأم: أنت المصدر، وأنت الذي أطلق عليه الرصاص.

الباشا: رصاصة طائشة في ظلام الليل ... كان هذا الشاب المهذب يتمشى في الحديقة يناجي القمر، أقصد القمر الذي سوف يطلع في الشهر الجديد، ولكنه رأى قمرًا آخر يطلع من هذه النافذة ... هو وجه خيرية.

الأم: أكانت إذن بينهما علاقة؟!

الباشا: بريئة جدًّا.

الأم (تنظر إلى خيرية بتأنيب)**:** أنت؟ ... أنت التي كنت أحسبها ابنتي الطاهرة الفاضلة.

خيرية: إني طاهرة فاضلة لو تعلمين يا أمي، كعهدك بي دائمًا ... ثقي أني لم أرتكب شيئًا تكرهينه مني؛ ولكني أريد أن يكون لي زوج وبيت.

الأم: زوج مثل هذا الرجل؟

خيرية: هو فقير حقًّا ... ولكنه مجد نشيط ... وذو مبادئ عليا ... وأسرته فقيرة ولكنها فاضلة شريفة.

الباشا: أهله من خيار الناس ... اشتهروا دائمًا بالدماثة، والوداعة، وطيب الأخلاق وجميل السجايا.

الأم (لابنتها)**:** أتعرفينه من قبل؟

خيرية: رأيته في المكتبة التي كان يعمل بها، يوم اشتريت المصحف.

الأم: عامل مكتبة؟

خيرية: كان طالبًا في كلية الآداب.

الباشا (للأم)**:** ألم أقل لك إني لاحظته، من النظرة الأولى متحليًا بالفضل والآداب.

الأم: عامل مكتبة؟!

الباشا: سيكون مدير شركة في وقت قريب، وهذا على عهدتي.

الأم (للباشا)**:** يدهشني تحبيذك لهذا الخطيب بالذات.

الباشا: لأنه ... لأنه ... لأنها ... لأنها ... تحبذ ذلك ... رغبات خيرية يجب أن يحسب لها حساب. نحن الآن في عصر يجب أن نزوج فيه البنات حسب رغباتهن ... لا حسب رغباتنا.

الأم (لخيرية)**:** أوَلم يقع اختيارك إلا على مثل هذا الشخص؟!

خيرية: الظروف ... يا ماما ...

الباشا: يجب أن نحسب حسابًا للظروف.

الأم: أي ظروف؟

الباشا: وجود هذا الرجل هنا ... في هذه الساعة من الليل ... وانطلاق الرصاصة الطائشة ... ووجود الطبيب ... كل ذلك يدعونا إلى إنقاذ الموقف بمنتهى الكياسة واللباقة.

الأم (بنظرة توبيخ لخيرية)**:** فهمت، فهمت، أنت التي وضعت نفسك في هذا الموضع الشائن.

الباشا (بلهجة الشهامة)**:** لا توبخيها ... ما دام في إمكاننا أن ندرأ الفضيحة قبل أن تشيع ... فلا محل للوم أو تقريع ... اتركي لي الأمر ... خيرية عزيزة على نفسي كما تعلمين. وسأعمل كل جهدي لأجعلها سعيدة في بيتها الجديد ... وسيكون زوجها ثريًّا ووجيهًا لائقًا بها، مرفوعًا إلى مستواها. وسوف أسهر عليها في حياتها الجديدة، وأرفرف على هنائها بأجنحة العناية والحماية والحب.

الأم: أعرف أنك لها في مقام الأب ... ولكن ...

الباشا: ولكن ماذا؟ ... أتشكِّين في حسن تقديري للظروف وخبرتي بالحياة؟ ... لو لم أرَ هذا الحل هو الحل الموفق السعيد؛ لما حبذته ونفذته ... اطمئني يا زوجتي العزيزة ... اطمئني دائمًا لرأيي وحكمي.

الأم (مطرقة في إذعان)**:** إني مطمئنة لرأيك وحكمك.

الباشا: قولي إذن لخيرية مبروك.

الأم (تتحامل على نفسها)**:** مبروك يا خيرية.

(باب الحجرة يفتح، ويظهر الطبيب، يحمل حقيبته الصغيرة.)

الباشا (يلتفت إليه)**:** خيرًا يا دكتور.

الطبيب: سليمة يا باشا! ... الرصاصة لم تخدش غير الجلد في أعلى الكتف ... بعد ثلاثة أيام لا يكون هناك أثر يذكر لهذا الجرح.

الباشا: ألا يحتاج لموالاة العلاج؟

الطبيب: لا أظن ... عندما يرفع الرباط سيكون الجرح قد التأم.

الباشا: شكرًا يا دكتور. إن صحته غالية جدًّا.

الطبيب: هل لدى البوليس علم بالحادث؟

الباشا: البوليس؟ ... ولماذا البوليس؟ ...

الطبيب: لأن الحادث من رصاصة ... والمصاب ...

الباشا: الرصاصة من مسدسي. والمصاب نسيبي ...

الطبيب: نسيبك؟

الباشا (يشير إلى خيرية)**:** خطيب الآنسة خيرية.

الطبيب (يلتفت إلى خيرية)**:** عفوًا ... عفوًا (ثم يلتفت إلى الباشا) لم أفهم ذلك فقد خيِّل إليَّ عند مجيئي أني سمعتك يا باشا تقول إن المصاب ضبط في الحديقة.

الباشا: بالضبط ... في الحديقة ... قولي يا خيرية للدكتور.

خيرية (بدهشة)**:** أقول له ماذا؟

الباشا: كيف يتقابل الخطيبان في هذا الجيل الجديد؟! ... (للطبيب) إنهما يا دكتور لا يعترفان بوجود الأبواب ... بل يستخدمان النوافذ ... الخطيبة تطل من النافذة في ظلام الليل، والخطيب يناجيها من الحديقة. مثل روميو وجولييت. رحم الله الشيخ سلامة حجازي.

خيرية: وما دخل الشيخ سلامة حجازي هنا؟

الباشا: لن أنسى قصيدته «أجولييت ما هذا السكوت»، شاهدته يمثلها منذ أعوام كثيرة ... وكنت بالطبع غلامًا يافعًا ... ولكن ما فكرت يومًا أن أناجي خطيبتي تحت نافذة ... ها هي زوجتي تشهد ... أحدَث أني ...

الأم: لا ... لأنه لم يكن في منزلنا حديقة.

الباشا: هذا صحيح ... كانت نافذتك على الطريق العام ... وفي عمارة في الطابق الخامس لو أردت يومئذٍ تسلقها لكان لا بد لي من سلم المطافئ.

الأم: ذاك منزلنا القديم، ولكن أيام خطبتنا، كنت في منزلٍ نافذتي فيه من السهل تسلُّقها ... فقد كانت في الطابق الأول.

الباشا: ومع ذلك لم أفكر في تسلقها.

الأم: لأنك لو كنت تقدر على ذلك لفعلت.

الباشا: ومن قال لك أني كنت غير قادر؟ ... أراهنك الآن أمام الدكتور أني مستعد أن أذهب إلى الحديقة وأتسلق أي نافذة ... ولكن نافذة خيرية ...

خيرية: لا ... لا ... أرجوك ... لا تقرب نافذتي.

الباشا: لماذا؟

خيرية: لا أريد أن ... أن أتحمل مسئولية ما يقع.

الباشا: وما الذي سيقع؟

الأم: أنت ... ومن سيقع غيرك؟

الطبيب (ضاحكًا)**:** أنا أيضًا من هذا الرأي ... لا أحبذ هذه التجربة ... إن رواية روميو وجولييت تنتهي دائمًا بكوارث.

الباشا: بسبب النوافذ ... هذا صحيح ... لو لم ألمح خطيب خيرية واقفًا في الظلام تحت نافذتها، لما ظننته لصًّا وأطلقت عليه خطأً هذه الرصاصة.

الطبيب: حصل خير على كل حال، وما دامت الإصابة بسيطة والأمر حدث خطأ في محيط عائلي؛ فيحسن عدم التبليغ.

الباشا: هذا ما رأيناه بالفعل.

الطبيب: والآن اسمحوا لي (يتحرك للانصراف ويسلم على الأم) نسيت أطلب إليك شيئًا ... إذا أمكن الآن تقديم شراب ساخن منعش مثل فنجان من الشاي إلى جريحنا العزيز، فإن هذا يفيده كثيرًا.

الأم: حالًا يا دكتور.

(وتترك المكان وتخرج من باب جانبي.)

الطبيب (لخيرية مسلِّمًا)**:** اطمئني على خطيبك، فهو في أتم صحة.

(ثم يتجه إلى الباشا مسلمًا.)

الباشا: دعني أشيعك إلى باب الحديقة الخارجي ... لئلا تضل في الظلام.

الطبيب: لا داعي يا باشا ... إن برد الليل ...

الباشا: برد الليل لا يؤذيني. لا تخف على بنيتي القوية ...

(يخرج الطبيب من باب البهو المؤدي إلى الحديقة ... خيرية تتبعهما بأنظارها إلى أن يخرجا. وعندئذٍ يفتح باب الحجرة ويطل منها رأس حامد.)

حامد (هامسًا)**:** خيرية!

خيرية (تلتفت)**:** حامد ... تعال ... كيف صحتك؟ ... أخبرني بالصدق.

(تهرع إليه وتتأمل رباطه الصحي.)

حامد: لا شيء ... صحتي على ما يرام.

خيرية (تقوده إلى مقعد مريح)**:** اجلس هنا ... عندي كلام كثير أقوله لك ...

حامد: قبل كل شيء ... لا بد أن أريح ضميري ... وأقوم نحوك ببعض الواجب؟

خيرية: أي واجب؟

حامد: إنقاذك من هذا الموقف السيئ الذي وضعتك فيه ... أين التليفون؟

(يراه ويريد أن يتجه إليه.)

خيرية (تمنعه)**:** التليفون؟ ... لماذا؟ ... ماذا تريد أن تصنع؟

حامد: أبلغ البوليس.

خيرية: اجلس هنا ولا تبرح مكانك ... تبلغه ماذا؟

حامد: أني لص دخلت للسرقة ... فأنا واثق أنك لم تخبريهم بالحقيقة، ولم تقولي لهم إني جئت أسرق.

خيرية: لا لزوم لكل هذا الآن.

حامد : بل لا بد لي من أن أعرف ماذا قلت لهم عني؟ ... بماذا عللت وجودي في حجرتك؟ لا ينبغي أن أسبب لك فضيحة ... أنت بريئة طاهرة ... ولا ذنب لك في شيء، ولكني أنا المذنب الذي زل.

خيرية: لا تقل ذلك ... كل شيء قد انتهى إلى خير حل ...

حامد: أي حل! ... إني أرفض أن تحملي عني وزري.

خيرية: إنك لم ترتكب وزرًا ... تمهل وأصغ إليَّ ... تعرف كل ما حصل ...

حامد: أعرف أنك جاهدت لإنقاذي ... هذا لا شك عندي فيه ... ولكن بأي ثمن؟ ... ما هو الثمن؟ ...

خيرية: لم أنقذك: بل أنت الذي أنقذتني! ...

حامد: أنقذتك أنا؟ ... ماذا؟

خيرية: أنسيتني هكذا سريعًا؟ ... إنك لم تعد تفكر إلا في موقفك أنت ... ألا تذكر ساعة هتفت من أعماق نفسي: إلهي ... أرسل إليَّ من عندك ملاكًا ينقذني؛ فبرزت أنت قائلًا: ها أنا ذا ...

حامد: أذكر ... ولما سألتني! ... عمن أكون؟ ... قلت لك: ملاك أو شيطان لست أدري! ولكني الآن أيقنت أني كنت لك شيطانًا ... جاء يوقعك في ورطة، ويجعل اسمك مضغة في الأفواه.

خيرية: بل لقد أخرجتني أنت من الورطة، وصنت اسمي الذي كان مهددًا بالتلوث ... وحفظت شرفي الذي كان موشكًا على الضياع.

حامد: أنا؟ ... أنا فعلت ذلك لك؟

خيرية: أنسيت أنك خطيبي أمام الله؟

حامد: إني أحلُّك من هذا العهد، بعد أن ضُبطت في منزلك كسارق.

خيرية: إنك لم تُضبط كسارق! ...

حامد: وهذه الرصاصة في أعلى كتفي؟!

خيرية: رصاصة طائشة ... أُطلقت عليك خطأً ... ولم يعرف الذي أطلقها شخصيتك في الظلام ... فلما عرف أنك خطيبي اعتذر.

حامد: اعتذر! ... أقلت لهم إني خطيبك؟

خيرية: طبعًا ... إني لم أتعود الكذب ... أليست هذه هي الحقيقة؟!

حامد: وكيف تلقَّوا هذا النبأ؟

خيرية: كما يتلقى العقلاء الأمر الواقع.

حامد: والباشا؟

خيرية: الباشا في أيدينا ... أو في يدك ... إذا أردت تبليغ البوليس أنه أطلق عليك الرصاص قاصدًا قتلك باعتبارك خطيبي ... فإن في إمكانك أن تزج به في السجن.

حامد: أهددته بذلك؟

خيرية: نعم ... هددته؛ فأبدى أسفه ... إنه لم يكن يعرف أني ارتبطت بخطيب.

حامد: والآن ... ما المخرج؟

خيرية: لماذا تبحث الآن عن مخرج؟! ... ألا تريد أن تنسى أنك الشخص الذي دخل إلى هنا خلسة؟! ... أنت الآن هنا رجل معترف به رسميًّا.

حامد: معترف به رسميًّا؟

خيرية: لقد أعلنت خطبتنا إلى أمي وإلى الدكتور ... وستعلن في الغد إلى الجميع.

حامد: وماذا قالت أمك؟

خيرية: قالت لي (مبروك).

حامد: أنا لا أصدق ...

خيرية: بل صدِّق ... أنت الآن في بيت خطيبتك.

حامد: ما هذه الليلة العجيبة ... بدأتها مجرمًا وختمتها متزوجًا.

خيرية: كُتب عليك في هذه الليلة، على كل حال، أن تختار بين قيدين. قيد من حديد ... أو ... قيد من ذهب!

حامد: لا تقولي ذلك يا خيرية ... إن القيد الذي يربطني بك هو قطعة من النعيم.

خيرية: فليشرق الآن وجهك ... لنطرح عنا فواجع هذه الليلة، ولا نذكر إلا خاتمتها السعيدة!

حامد (يعود إلى القلق): والباشا ... كيف كان موقفه منك بالدقة ... كيف لم يثر لفكرة زواجك مني؟ ... كيف يتخلى عنك هذا الرجل بمثل هذه السهولة؟ ... لقد سمعته من خلف ستارتك يقسم أنه يحطم كل ما يحول بينه وبينك؟ ... ما الذي يمكن أن يصرفه عن هذا المأرب؟ ... وينتزع من نفسه هذه الرغبة، ويجعل قلبه صافيًا ناصعًا نقيًّا؟

خيرية (تخفي ارتباكها): قلت لك ... قلت لك.

حامد (بحدة): تكلمي ...

خيرية: لا تنظر إليَّ هكذا كما لو كنت مجرمة!

حامد: إني أريد أن أقتنع ... أقنعيني كيف تخلى عنك هذا الرجل؟

خيرية: بالتهديد أولًا كما قلت لك ...

حامد: التهديد بأنه في أيدينا؛ لأنه أطلق على خطيبك النار؟

خيرية: حذارِ يا حامد أن تخاطبني هكذا بلهجة الارتياب.

حامد: أريد أن أقتنع.

خيرية: من حقك أن تكون غيورًا بعض الشيء، ولكن إياك أن تشك فيَّ منذ الآن.

حامد: إني أثق بك يا خيرية كل الثقة ... ولكن أريد أن أقتنع.

خيرية: إذا كنت تثق بي حقًّا فلا تُثر هذه الأسئلة الخيالية ... هناك أشياء لا يستطيع الإنسان أن يقدم عنها جوابًا مقنعًا ... لأن طبيعتها تأبى التعليل المعقول ... من ذلك مسائل العواطف والغرائز ... إن هذا الرجل الذي سمعته من خلف الستار يقذف من فمه ذلك الكلام كأنه حمم من بركان، قد خمد فجأة ... أتتصور هذا؟ ... نعم ... لقد هدأ عندما أيقن أن هناك وثاقًا متينًا يربطني نهائيًّا بخطيب ... لكأن كل أمل عنده قد انهار، وحل محل الرجاء في قلبه يأس ... مريح مريح ... تنفس بعده الصعداء ... وكأنه أفاق من حلم مزعج ... فإذا السكينة تقر في نفسه ممزوجة بالرضا ... إنك لا تصدق ... ولكنك الآن ستراه، وترى منه ما رأيت أنا، وتلاحظ ذلك التغير الذي طرأ عليه ... أكاد أشعر أن عواطف الأبوة قد بدأت تتيقظ فيه، وتقوم مكان تلك العواطف المستعرة الأخرى؛ فهو الآن يتحدث في هنائي، ويجد راحة نفسية في أن يعينني على تأسيس بيتنا، وأن يحدب ويعطف على سعادتنا الزوجية.

حامد: واثقة أنت إذن كل الثقة من نواياه الطيبة؟

خيرية: كل الثقة.

حامد: ما دمت تثقين فأنا أثق ... إنه لمن حسن حظنا أن تتحول مشاعر هذا الرجل إلى ناحية الخير.

خيرية: دخولك حياتي كان له هذا الفضل.

حامد: ربما ... إن الكنز المتروك يغري بالسطو.

خيرية: سطو من؟

حامد: سطو الباشا بالطبع ... رآك وحيدة منفردة ... لا خطيب يحبك ولا حارس يحرسك فنبتت فيه غريزة السطو.

خيرية: أما أنت فلم تأتِ للسطو على هذا الكنز ... بل على كنز آخر! ...

حامد: ألا تريدين أن تنسي لي هذه الزلة؟! ... ألا تظنين أني قد دفعت ثمنها هذه القطرات من دمي ... من تلك الرصاصة التي كان يمكن أن تقتلني. أيسوءك أني لم أجئ للسطو عليك أنت ... إنها لمفخرة لي ... أني جئت أحرس هذا الكنز الأسمى، وأذود عنه، وأحفظ كرامته، وأكون دائمًا في خدمته، خالصًا مخلصًا إلى آخر أيامي على هذه الأرض.

خيرية: أتعاهدني على ذلك؟

حامد: أعاهدك.

خيرية: هات يدك ...

حامد: هاتي يدك أنت!

(يتناول يدها ويلثمها طويلًا، يظهر عندئذٍ الباشا عائدًا من الحديقة.)

الباشا (يراهما فيتنحنح): قبلة الخطبة المباركة ...

خيرية (تنهض وتقدم حامد للباشا): أقدم لك خطيبي حامد.

الباشا: إننا سعداء يا حامد بك بوجودك.

حامد: أنا لي الشرف يا باشا.

الباشا (ينظر إلى رباطه الصحي): كيف حالك الآن؟ ... لعلك غير متألم من هذا الجرح.

حامد: إنه خدش بسيط لا يؤلم.

الباشا: إني آسف أن يكون أول استقبال لك في بيتنا، لا أقدم إليك فيه شيئًا من المرطبات، أو بعض الحلوى و«الملبس».

خيرية (بابتسامة): أما «الملبس» فقد تناوله في شكل رصاصة.

الباشا: يؤلمني ذلك ... ولكن الذنب ذنبكما ... بل أنت المخطئة يا خيرية ... كان الواجب عليك أن تقدمي إلينا خطيبك في وضح النهار والشمس طالعة. فما من أحد يسعى في الظلام ويوحي إلى الناس بالفضيلة والسلام.

حامد: الظروف يا باشا قد قضت بذلك.

الباشا: لقد تغيرت الظروف ... ومنذ اليوم تدخل بيتنا وتدخل بيتك وقت ما نشاء.

حامد: إني أتشرف ...

الباشا: لا بد لكما بالضرورة من بيت لطيف أنيق؛ هذا عليَّ أنا ... ثق أني سأجهز خيرية جهازًا يليق بها ... ويغريها باستقبال زوارها وهي مزهوة فخورة.

خيرية: متى يتم ذلك؟

الباشا (بنظرةٍ ذات مغزًى)**:** أإلى هذا الحد أنت نافدة الصبر؟

خيرية: أيدهشك هذا؟

الباشا (بنظرةٍ ذات معنًى)**:** يدهشني قليلًا ... ويسرني كثيرًا ... لا تقلقي يا خيرية ... ثقي أني أشد منك حرصًا على سرعة التنفيذ ... فإن سعادتك تهمني ... غدًا أشرع في إعداد كل ما يلزم ... نعم ابتداءً من صباح الغد.

(تظهر الأم وخلفها خادم يحمل صينية عليها معدات الشاي.)

الأم: ابتداء من صباح الغد ... ماذا؟

الباشا: نقوم بتجهيز خيرية ... أليس هذا من رأيك؟

الأم: ولماذا الإسراع؟

الباشا: ولماذا الإبطاء؟

خيرية (وهي تساعد أمها في إعداد فنجان الشاي)**:** كم قطعة من السكر يا حامد؟

حامد: ثلاث قطع فقط.

خيرية (لأمها همسًا)**:** دعيني يا أمي أذهب إلى بيتي سريعًا ... أرجوك ... يا ماما ... أرجوك.

الأم: فليكن ما تريدين يا ابنتي! ... إني أفهمك.

الباشا (يتثاءب)**:** لا تنسوا أني رجل على عاتقي مسئوليات خطيرة في المجتمع، وعندي غدًا كالعادة اجتماعات هامة في مجالس إدارات شركات وجمعيات، فواجبكم أن تشجعوني على الذهاب إلى فراشي ... كما يشجَّع الأطفال الأبرياء الأطهار.

الأم: وماذا يرغمك على السهر ... اصعد أنت إلى حجرتك.

الباشا (لحامد وخيرية)**:** أكرر التهاني ... وإلى الغد ... موعدنا الغد.

حامد (ومعه خيرية في نفس الوقت)**:** إن شاء الله.

الباشا (وهو يتجه إلى السلم)**:** سأذهب إلى فراشي ... وأنام بملء جفوني ... وأحلم أحلامًا جميلة ... ظريفة ... لطيفة.

(يصعد السلم على مهل وهو يصلح هندامه مختالًا ويكون وجه خيرية في اتجاهه، بينما الأم وحامد ظهرهما إلى السلم فلا يريانه وقد انشغلا في حديث خاص. يقف الباشا على الدرج ويلتفت إلى خيرية ويرسل إليها قبلة طويلة في الهواء، فتتلقاها برعدة وتطرق برأسها نحو الأرض.)

(ستار)

الفصل الثالث

(مكتب مدير شركة الحامدية ... مقاعد جلد فاخرة وأثاث فخم، وخرائط زراعية وإحصائية إلخ ... حامد المدير ... جالس إلى مكتبه، وأجراس التليفونات العديدة حوله ترن في وقت واحد ...)

حامد (يتناول السماعات): نعم! ... مفهوم ... سأتحرى الأمر الآن بنفسي ونكتب إليكم الرد (يضع سماعة ويجيب في التليفون الآخر) فاهم ... فاهم ... سيصلكم قريبًا جدًّا ... سأتحرى الموضوع ... باشكاتب الشركة سيعرض عليَّ البيانات! ... (يضع السماعة ويدق جرس السكرتير الخاص. وإذا التليفون يرن) أف! ... غير موجود الآن! ... (يضع سماعة التليفون ويدخل السكرتير) «الباشكاتب؟!» ... أين حضرة الباشكاتب؟ ... طلبته منذ ساعة ... ألا يريد أن يأتي؟!

السكرتير (في ارتباك): قال لي إنه مشغول قليلًا.

حامد: عجبًا! ... ألست أنا مدير الشركة! ... ألا يستطيع مدير الشركة أن يطلب باشكاتب الشركة؟

السكرتير (في يده بطاقة زيارة): شاكر بك هنا يريد مقابلة سعادتك في أمر هام.

حامد: شاكر بك ... من هو شاكر بك؟

السكرتير: هو ...

(يفتح الباب ويدخل الباشكاتب فجأة.)

حامد: أخيرًا! ... يا حضرة الباشكاتب.

الباشكاتب (يتجه إلى حامد ولكنه يلتفت إلى البطاقة في يد السكرتير ويخاطبه بعنف): من قال لك أن تستقبل هذا الرجل؟!

السكرتير (بأدب وخضوع): لقد جاء يلتمس مقابلة البك المدير.

الباشكاتب: هذا الرجل ممنوع أن يضع قدمه في هذه الشركة ... ألا تعرف ذلك؟

السكرتير: ممنوع؟

الباشكاتب: بأمر الباشا ... ممنوع بأمر الباشا.

السكرتير: لم أكن أعرف.

الباشكاتب: لقد عرفت الآن ... اذهب واطرده في الحال.

السكرتير (يخرج بسرعة صادعًا بالأمر): في الحال.

حامد: ما شاء الله ... حتى زوَّاري لا أستطيع أن أستقبلهم؟ ... ما معنى كل هذا؟

الباشكاتب: العفو يا سعادة البك! ... جنابك هنا المدير ... مطلق التصرف ... صاحب الكلمة النافذة ... الآمر الناهي ... لكن من واجبنا أن نحميك — وأنت لنا الذخر والسند والموجه والمرشد — من زيارات الثقلاء، وأن نحمي وقتك الذهبي الثمين من أصحاب الشكاوى ...

حامد: أوَليس من واجبي أيضًا تحري شكاوى المساهمين؟ ...

الباشكاتب: ثق أن كل شيء بخير ... كل شيء بخير ... ومركزنا المالي والحمد لله أرسخ من الجبال! ... امسك جنابك الخشب! ...

حامد: هذا جواب غير مقنع ... وقد أجبتني بمثله مرارًا ... ولكن المساهمين في قلق على هذه الشركة ...

الباشكاتب: ولماذا القلق ... لا سمح الله؟ ...

حامد: لأنكم بعد أن أعلنتم عنها ذلك الإعلان الضخم، وطرحتم أسهمها في السوق، وأقبل الجمهور على الاكتتاب ... وسار كل شيء على ما يرام؛ إذا فجأة لا يسمع أحد شيئًا عن هذه الشركة.

الباشكاتب: وماذا يريد الناس أن يسمعوا؟ ... لقد تم الاكتتاب وانتهى الأمر ... أي داعٍ بعدئذٍ للطبل والزمر؟!

حامد: إني لا أسأل عن الطبل والزمر؟ ... إني أسأل عن الشركة؟ ... أين هي هذه الشركة الآن.

الباشكاتب: موجودة.

حامد: أين مديرها؟

الباشكاتب: هذه مسألة أخرى ...

حامد: أين أسهمها؟ ... هل سلمتم كل الأسهم لأصحابها؟ ... مئات من الخطابات والتليفونات، من صغار المزارعين، والمهندسين والمدرسين والمحامين، أهل الطبقة المتوسطة من الجمهور؛ ممن بادروا إلى الاكتتاب. يقولون إنهم دفعوا النقود ولم يتسلموا سوى إيصالات غير قابلة للتحويل ... ولما طالبوكم بالأسهم أجلتم وماطلتم ... وأخيرًا اقترحتم عليهم أن يأخذوا بنقودهم أسهم الشركة الجديدة (الحامدية) بدلًا من الشركة القديمة (الشاكرية).

الباشكاتب: هذا صحيح ... وأي ضرر في هذا؟ ... إن غرضنا دائمًا هو مصلحة الجمهور.

حامد: وما هي مصلحة الجمهور هنا؟

الباشكاتب: الشركة الجديدة التي تتشرف بإدارتكم خير ألف مرة من الشركة القديمة.

حامد: شيء عجيب ... لقد ساهم الجمهور في الشركة القديمة بأمواله ... فبأي حق توجهونه إلى شركة أخرى؟

الباشكاتب: الشيء العجيب حقًّا هو أن الجمهور يشكو من ذلك ... هذا الجمهور الذي لا يعرف مصلحته!

حامد: إنك لم تجب عن سؤالي ... لماذا حولتم الجمهور من شركة إلى شركة، من الشاكرية إلى الحامدية ...؟

الباشكاتب: وما الفرق بين الشاكرية والحامدية؟

حامد: أتسألني أنا؟ ... هذا هو السر الذي أريد أنا أن أعرفه؟!

الباشكاتب: لا يوجد سر على الإطلاق ... ولكن نستطيع القول إن شركة الشاكرية سائرة في طريقها ...

حامد: في طريقها ...

الباشكاتب: نعم ... إلى التصفية.

حامد: ماذا تقول؟ ... التصفية؟ ... بعد نجاح اكتتابها وتغطية أسهمها؟

الباشكاتب: هذا هو الشيء الغريب! ... ولكن ماذا نفعل؟ ... ومديرها رجل محتال نصاب، مزور.

حامد: يا للكارثة! ... احتال وزوَّر على من؟

الباشكاتب: على الجميع ... على الجمهور، وعلى الباشا، وعلى أعضاء مجلس الإدارة.

حامد: وكيف تمكن من الاحتيال والتزوير؟ ... أخبرني بكل شيء!

الباشكاتب: تلك حكاية طويلة ... يحسن أن أقصها على سعادتك في وقت أوسع من واقع الملف الخاص ... حتى يكون كلامي مؤيد بالمستندات. أما الآن فإني مشغول جدًّا ... ولو سمحت لي بالإمضاء (يعرض أوراق ملفه).

حامد (دون أن ينظر إلى الأوراق): وأموال الجمهور؟

الباشكاتب: لا خوف عليها ... لقد حولناه إلى شركتكم الناجحة المضمونة.

حامد: فهمت ... وهذا المحتال في السجن طبعًا.

الباشكاتب: مع الأسف ... لا ... أنت تعرف قلب سعادة الباشا المتدفق بالرحمة، الفياض بالشفقة ... النابض بالعواطف الجميلة النبيلة ... (مشيرًا إلى الأوراق) لو سمحت بالإمضاء هنا ...

حامد (ينظر إلى الأوراق): ما هذا أيضًا؟ ... أسهم؟! ...

الباشكاتب: نعم ... لقد أردت أن أخفف عن سعادتك العبء ... فرأيت أن أحضر للإمضاء في كل يوم كمية من الأسهم الصادر بها المرسوم.

حامد (وهو يمضي بالقلم): حقًّا ... في كل يوم أمضي كمية ... أما من طريقة أخرى ... لماذا لا أوقع بختمي؟ ... حتى ننتهي من هذه العملية سريعًا.

الباشكاتب: لا بد من إمضاء سعادتك على كل سند ... زيادة في الضمان.

حامد: إنك شديد الحرص يا حضرة الباشكاتب ... وإنه ليدهشني كيف استطاع مدير «الشاكرية» أن يحتال ويزور وأنت هنا، على مقربة منه، مفتوح العينين!

الباشكاتب: ساعة القدر يعمى البصر.

حامد: لقد شوقتني إلى معرفة هذه الجريمة! ... (يضع القلم) فلنؤجل إمضاء ما بقي من الأسهم إلى لحظة أخرى ... اذهب الآن وأحضر إليَّ الملف الذي وعدتني به.

الباشكاتب (بقلق): أي ملف؟

حامد: الملف الخاص بحكاية الاحتيال والتزوير.

الباشكاتب: الآن؟

حامد: نعم ... الآن ... ما الذي يمنعك؟

الباشكاتب: إنه ليس عندي.

حامد: أين هو؟

الباشكاتب: إنه عند ... عند سعادة الباشا.

حامد: المسألة بسيطة ... نطلبه من سعادة الباشا بالتليفون ... فيرسله مع ساعٍ في أقرب وقت (يمسك بالسماعة).

الباشكاتب (يضطرب): لا ... لا داعي إلى مخاطبة الباشا في ذلك؟ ... لئلا يظن أني ...

حامد: أنك ماذا؟

الباشكاتب: أني متحامل على المدير السابق ... وأني أريد فضيحته ... لقد رأى الباشا وأعضاء مجلس إدارة الشركة القديمة أن يكون الأمر سرًّا وأن يطوى الموضوع، ويسوى بهدوء، حتى لا يثار اللغط حول مشروعاتهم. فلا تحرجني يا سعادة المدير.

حامد: ليس في هذا إحراج لك، ولكني أريد أن أعرف مركز الشركة القديمة التي دخلت في شركتي.

الباشكاتب: ما دام الباشا لم يذكر لك شيئًا ...

حامد: إذن يجب أن أسأله ...

الباشكاتب: لا ... لا تسأل ... نصيحتي المتواضعة أن لا تفعل ... ماذا يهمك من كل ذلك يا سعادة البك ... أنت مدير ناجح ... تتقاضى مرتبًا كبيرًا، وتعيش في بحبوحة وسعادة ... كل أوامرك مطاعة وطلباتك مجابة ... حائز لثقة مجلس الإدارة ... متمتع ببيت جميل وحياة عائلية رغدة ناعمة في ظل سعادة الباشا وكرمه وعطفه.

حامد (بحدة): ما معنى هذا؟

الباشكاتب: لا شيء ... لست أعني شيئًا على الإطلاق سوى أن الموضوع لا يساوي الآن أن تحدث من أجله ضجة أو تثير فيه ساكن الباشا أو المجلس.

حامد: ولكني أريد أن أعرف.

الباشكاتب: إذا كان لا بد من ذلك فاترك لي الأمر أحضر لك المعلومات خلسة بلا ضوضاء.

حامد: أريد الاطلاع على الملف.

الباشكاتب: «ملف الشاكرية»؟ ... أنا أحضره إليك.

حامد: متى؟

الباشكاتب: مع شيء من الصبر ... مع شيء من الصبر.

حامد: اذهب الآن وأحضره ... الآن ...

الباشكاتب (يأخذ أوراقه من أمام حامد ويذهب): سأحاول.
حامد: نعم ... اذهب وحاول.

(يخرج الباشكاتب، وينهض حامد ويقترب من إحدى الخرائط فوق الحائط وهو يلفظ «الشاكرية» ... «الشاكرية» ... ولا تمضي لحظة حتى يفتح الباب ويطل منه رأس شاب في مثل سن حامد ... ثم يدخل المكتب.)

حامد: من حضرتك؟
الشاب: لا تؤاخذني ...
حامد (مقاطعًا): من حضرتك؟
الشاب (متابعًا كلامه): لم أجد غير هذه الطريقة ... كلهم هنا يريدون منعي من مقابلتك.
حامد: من حضرتك؟
الشاب: أنا مدير الشركة السابق ... شاكر ...
حامد: الشاكرية ...؟! مدير الشاكرية؟!
شاكر: نعم ... أنا المدير ... ولا فخر! ...
حامد (يبادر ويقدم إليه كرسيًّا): تفضل ... تفضل ... فرصة طيبة ... إني ليسرني أن أراك ... ماذا أطلب لك ... قهوة؟ ... ليمون؟
شاكر: لا ... لا ... لا تطلب لي شيئًا ... ولا يحسن أن يراني أحد معك ... بعد أن غافلت الجميع ودخلت عليك هكذا.
حامد (يقدم إليه علبة السجاير): سيجارة؟
شاكر (يتناول واحدة): متشكر.
حامد: ولماذا يريدون منعك من مقابلتي؟
شاكر: لأنهم يخشون أن أطلعك على معلومات ليس من مصلحتهم أن تعرفها أنت، في الوقت الحاضر.
حامد: في الوقت الحاضر؟
شاكر: نعم ... في الوقت الذي تصدر فيه أسهم شركة «الحامدية».
حامد: لست أفهم شيئًا ... أفصح قليلًا.
شاكر: لقد طلب إليك باشكاتب الشركة أن توقع بإمضائك على كل سهم باعتبارك المدير؟!

حامد: طبعًا ... زيادة في الضمان.

شاكر: ضمان من؟ ... ضمان خلو مسئوليتهم هم ... ما علينا ... أراقبت بنفسك الأرقام المسلسلة لهذه الأسهم؟!

حامد: فعلت ذلك في أول الأمر ... ولكني في كل يوم أوقع بإمضائي على كميات كبيرة. وأصبحت العملية آلية كما تعلم.

شاكر: نعم ... كما أعلم ... للأسف ... بعد فوات الأوان.

حامد: أرجو أن توضح لي الأمر أكثر من ذلك.

شاكر: هل اطلعت أولًا على ما تم من موضوع الشركة القديمة (الشاكرية).

حامد: لقد حاولت ذلك كثيرًا ... ولكني اليوم أصررت على أن أطلع على الملف ... وقد ذهب الباشكاتب بالفعل ليحضره إليَّ.

شاكر: إنه لن يحضره إليك.

حامد: لماذا؟

شاكر: لأنك ستجد فيه إجراءات وأساليب، يتضح لك منها أني محتال ومزور.

حامد: هذا حقًّا ما قيل عنك ... ولكن ما دخلي أنا في ذلك.

شاكر: سيتضح لك منها في عين الوقت أنك أنت أيضًا محتال ومزور.

حامد: أنا؟ ... ما هذا الذي تقول؟

شاكر: تريد أن تعرف بالضبط ما حدث؟ ... إذن فاسمع ... لقد تأسست الشركة المساهمة (الشاكرية) بمقتضى مرسوم ... برأس مال قدره مائة ألف جنيه ... دفع منه الباشوات أعضاء مجلس الإدارة نحو الثلث ... على الورق مفهوم؟ ... أي إنهم لم يدفعوا مليمًا ... ولكن أسهمهم قدمت إليهم هدية كما تقدم باقات الزهر ... تيمنًا بأسمائهم الكريمة ... وطرحت بقية الأسهم في السوق ... ودقت طبول الإعلان مصحوبة بالأسماء الكريمة ... فأقبل الجمهور الواثق بهم على الشراء إقبالًا جارفًا ... حتى ارتفع ثمن الأسهم إلى ضعفه في أيام ... وهنا يأتي دوري؛ فإن قلمي باعتباري مديرًا جعل يمضي على أسهم لا ينتهي عددها كل يوم ... وإذا الحقيقة تظهر لي بعدئذٍ أن هذه الكميات الأخيرة من الأسهم قد طُبعت حديثًا بعد ارتفاع الأسعار بأرقام مسلسلة مزورة. أي إن السهم رقم ١٧٥ مثلًا قد تكرر أكثر من أربع مرات؛ أي إن السهم الواحد قد بيع أكثر من أربع مرات.

حامد: يا للمصيبة! ... ومن الذي فعل ذلك؟

شاكر: أنا طبعًا المسئول؛ لأن إمضائي بيدي على كل سهم!

حامد: وفي جيب مَن دخلت أثمان الأسهم المكررة؟

شاكر: اسأل الباشا والباشكاتب.

حامد: والجمهور من المساهمين؟

شاكر: لم يسلموهم الأسهم المزورة ... بل أعطوهم إيصالات بالمبلغ. وجعلوا يماطلونهم في تسليم هذه الأسهم ... ثم رأوا أن يصفُّوا «الشاكرية» قبل أن ينكشف الأمر ... ويؤسسوا مكانها «الحامدية» ويعطوا الضحايا أسهمها بدلًا من أسهم الأولى ... مفهوم؟

حامد: وأنت ... ما مركزك؟

شاكر: كما ترى ... عنقي هي التي تحت السيف ... كلمة من الباشا إلى النيابة ... فإذا بي أنا في أعماق السجون بتهمة التزوير والاحتيال.

حامد (يشير إلى الحائط): وما هذه الأطيان المرسومة على الخرائط باسم تفتيش «الشاكرية».

شاكر: تلك أرض بور ورمال كان يملكها الباشا في صحراء الشرقية، مساحتها نحو ألف فدان، لا تساوي كلها أكثر من ألف جنيه، باعها سعادته للشاكرية بعشرين ألف جنيه. وجعل من أغراضها أن تزرعها بالفول السوداني، وأن تستخرج من الفول السوداني زيتًا، وأن يصنع من الزيت صابون وأن يجعل من الصابون إلى آخره ... إلى آخره ...

حامد: ولكن هذه الأطيان حُولت الآن إلى الشركة «الحامدية».

شاكر: حُولت بطريق البيع مرة أخرى.

حامد: مرة أخرى؟

شاكر: بعد تصفية «الشاكرية» باع سعادة الباشا بصفته رئيس مجلس إدارة الشركة القديمة إلى سعادة الباشا بصفته رئيس مجلس إدارة الشركة الجديدة هذه الأطيان نفسها بمبلغ ثلاثين ألف جنيه ... تجد ذلك ثابتًا في الملفات ... أي بربح عشرة آلاف جنيه في الصفقة ... والأرض هي الأرض، والرمل هو الرمل ... ولم تكن قد أخرجت بعد لا فولًا ولا صابونًا.

حامد (كالمخاطب لنفسه): يا للعجب! ... هكذا إذن يصنعون المال!

شاكر: نعم ... هكذا يصنعون المال.

حامد (يمد يده إلى الجرس): لقد نبهتني إلى خطر.

شاكر (يستوقفه): مهلًا ... ماذا أنت صانع؟

حامد: يجب أن أنادي الباشكاتب ... وأفحص معه أرقام الأسهم.

شاكر: حذارِ من أن تخبره أنك مرتاب في شيء ... فإنه قدير على أن يضلك ويخفي عنك كل أثر.

حامد: وما العمل؟

شاكر: اعتمد على ذاكرتك ... وراقب بنفسك كل رقم تشك في أنه مكرر. واضبطهم متلبسين بالجريمة.

حامد: ولكني وقعت بإمضائي على أسهم كثيرة ... من يدريني أنها ليست مزورة؟

شاكر: في هذه الحالة تكون قد وقعت في الفخ، وفات الأوان.

حامد (في رعدة): يا لله! ... في أي مكان نعمل هنا؟ ... وأنا الذي حسبت أني أدير شركة محترمة منتجة؟

شاكر: الشركة «الحامدية»! ... ومن يدري ماذا ستتخذ لها غدًا من الأسماء والمترادفات.

حامد: غدًا؟

شاكر: أنسيت أن اسمها بالأمس كان «الشاكرية» وكنت أنا مديرها الذي يجلس في نفس هذه الحجرة ... وإلى نفس هذا المكتب، محاطًا بهذا الفرش والرياش والخرائط والأرقام والإحصاءات. ما من شيء تغير هنا الآن إلا اسم الشركة واسم المدير.

حامد: وما عملك اليوم؟

شاكر: لا شيء ... مطرود إلى قارعة الطريق!

حامد: ولماذا يطردونك؟

شاكر: لأن الباشا لم يعد في حاجة إليَّ.

حامد: وكيف لا يحتاج إليك وإلى خبرتك وكفاءتك؟! ... لقد كنت مديرًا!

شاكر: خبرتي وكفاءتي؟! هذا ما كنت أعتقده يوم أخذني الباشا من وظيفتي الصغيرة: كاتب قيودات في شركته. وأجلسني مديرًا للشركة ... تذكرت عندئذٍ نبوغي يوم كنت طالبًا في كلية التجارة، وقلت في نفسي مزهوًّا وأنا أتربع في هذا المقعد الكبير: هذا مكاني الطبيعي ... لقد وصلت حقًّا بسرعة تحير اللب وتصدم العقل ... ولكن هذه معجزة الكفاءة ... وظل حضرة الباشكاتب يدخل عليَّ كل يوم يسبِّح بخبرتي وكفاءتي. حتى أعماني البخور وأسكرني الغرور، فلم أبصر أي وحل أسير فيه، ولا أي هوة تحت قدمي ... إلى أن انتهى بي الأمر إلى ما ترى من ضياع الشرف والعرض.

حامد (بدهشة ورعشة): العرض؟!

شاكر: نعم ... العرض ... وتلك قصة أخرى لا شأن لك بها ... فإن ظروفي فيها تختلف عن ظروفك ... إنما أردت مقابلتك اليوم لأنبهك إلى تزوير الأسهم ... لعلك تتمكن من ضبط الجريمة في حينها ... فأستفيد أنا من ذلك في دفاعي ... إذا قدمني الباشا إلى النيابة؟

حامد: وما مصلحة الباشا في أن يقدمك إلى النيابة؟

شاكر: ليتخلص مني!

حامد: ولماذا يتخلص منك؟

شاكر: لأني أطالبه بغسل العار عن فتاة غرر بها واعتدى عليها.

حامد: فتاة اعتدى عليها؟ وما شأنك أنت بها؟

شاكر: أختي ...

حامد: ماذا تقول؟

شاكر: ما دمت تريد أن تعرف ظروفي الخاصة ... فلا بأس من أن أذكرها لك ... القصة باختصار أن أختي، وهي فتاة في العشرين، مرت بي ذات يوم هنا وأنا كاتب قيودات، في بعض شأنها، فلمحها الباشا وتلطف معها ومعي، وأبدى لها استعداده لمعاونتها في الحياة ... وكان كل أمنيتها بعد أن أتمت دراستها أن تتوظف مدرسة في إحدى مدارس البنات ... ولكن الواسطة كانت تنقصها ... فلما عاونها الباشا بنفوذه وعينت بالفعل ... أسرها الجميل فلم تفطن إلى حقيقة نواياه ... وازداد تقربه منا ... وكثرت هداياه وعظُم اهتمامه بي، واكتشف مواهبي وكفاءتي ... فلم يجد لهما أنسب من منصب المدير لشركة تحمل اسمي، وضخَّم مرتبي ... فاتخذنا مسكنًا لائقًا ... وأصبح الباشا يزورنا في هذا البيت الفخم زيارة الصديق للصديق ... ولكن أعمالي في الشركة كانت تستوجب تغيبي من حين إلى حين ... وليس في البيت غير أمي العجوز ... تصلي دائمًا في حجرتها وقد ضعف بصرها ... وأخيرًا تبين لي السر ...

حامد (كالمخاطب نفسه): نعم ... فهمت ... فهمت ...

شاكر: نعم ... أين نحن الضعاف من هؤلاء؟! نحن الجيل الجديد الذي تخرج من الجامعات مؤمنًا بالمثل العليا! ...

حامد (من بين أسنانه ساخرًا): المثل العليا! ...

شاكر: خطؤنا الأكبر أننا لم نستطع الاحتفاظ بها طويلًا في قلوبنا ... لكن هل كان في الإمكان أن تبقى أو تصمد بعد أن رأينا ما يجري في الحياة؟ ... وبعد أن كشف لنا المجتمع، بما فيه من أمثال هؤلاء القادة والكبراء، عن طرق الوصول ومُثل النجاح؟! ...

حامد (كمن يخاطب نفسه)**:** الويل للباشا إذا كان ما تقول صحيحًا.

شاكر: نعم ... الويل له ... إني أعرف الآن ما أنا صانع. لقد دفعوا بنا إلى الجريمة.

(ينهض متأهبًا للانصراف.)

حامد (وهو ينهض)**:** ماذا تنوي أن تفعل؟

شاكر: ما أفعل سوف تعرفه في وقته.

(يسلم على حامد ويتركه ويخرج من يحث جاء، بينما يقف حامد بلا حراك وكأنه من الشرود غائب الوعي، وفجأة يفيق وينقضُّ على آلة التليفون كالمجنون ويدير رقمًا.)

حامد (السماعة على أذنه)**:** آلو ... آلو ... من أنت؟ إدريس؟ ... من إدريس؟ آه ... إدريس السفرجي ... اسمع يا إدريس ... أين الست؟ ... الست؟ ... أين الست؟ ... خرجت؟ ... خرجت أين؟ ... ألا تعرف أين ذهبت؟ ... لا تعرف؟ ... ومن طلبها في التليفون؟ ... الباشا؟ ... الباشا طلبها في التليفون.

(وعندئذٍ يدخل السكرتير حاملًا برقية يقدمها إلى حامد بأدب واحترام.)

السكرتير: هذه برقية من وكيلنا بالإسكندرية ... أشر عليها سعادة الباشا.

حامد (يخطفها من يده ويقرؤها)**:** «عزيزي حامد بك ... يجب أن تسافر الليلة إلى الإسكندرية لتشرف بنفسك على حركة بيع الأسهم في البوصة.»

حامد (يدس البرقية في جيبه ويلبس طربوشه ويندفع خارجًا وهو يقول)**:** أسافر الليلة! ... مفهوم ... مفهوم ... مفهوم جدًّا!

(يخرج على نحو يدهش له السكرتير الذي يقف ناظرًا إليه كالمأخوذ، ويقلب كفه كمن لم يفهم شيئًا مما يرى، ويدخل عندئذٍ الباشكاتب من باب آخر يحمل أوراقه وينظر إلى المكتب الخالي.)

الباشكاتب (يلتفت حوله)**:** أين المدير؟

السكرتير: خرج مسرعًا.
الباشكاتب: خرج؟ ... وكيف يخرج قبل أن يمضي بقية الأوراق؟
السكرتير: لست أدري يا حضرة الباشكاتب.
الباشكاتب (بنظرة نارية)**:** يا حضرة؟
السكرتير (متداركًا)**:** البك ... يا حضرة البك ... لست أدري والله أين ذهب المدير ... كل ما أعلم هو أني دخلت أعرض عليه برقية مؤشرًا عليها من الباشا ... فخطفها من يدي ودسها في جيبه وانطلق خارجًا على نحو غريب.
الباشكاتب: ما شاء الله! ... ما شاء الله! ...
السكرتير: لو كنت أعلم أن سعادتك تريد أن يبقى في المكتب قليلًا كنت اتخذت اللازم.

(صوت الباشا من الخارج يتنحنح.)

الباشكاتب: صه ... سعادة الباشا.

(يقف بأدب متأهبًا للمقابلة. وكذلك السكرتير. ويدخل الباشا يعبث بسبحة من الكهرمان.)

الباشا (ينظر إلى المكتب الخالي)**:** أين حامد بك؟
الباشكاتب: خرج الآن يا باشا!
الباشا: أين ذهب؟
الباشكاتب: لا أعرف ... لم يخطرني بذهابه! ... ولكن السكرتير يقول إنه أعطاه برقية.
السكرتير: البرقية المؤشر عليها من سعادة الباشا.
الباشا: آه ... عظيم ... عظيم ... عظيم ... لقد ذهب ولا شك يعد حقيبة السفر؛ فهو لا بد أن يكون الليلة في الإسكندرية ... مدير نشيط.
الباشكاتب: بماذا يأمر سعادة الباشا؟
الباشا: لا شيء ... كيف حال العمل عندك يا حضرة الباشكاتب؟

(الباشكاتب يومئ بإشارة إلى السكرتير لينصرف. فيخرج السكرتير في الحال.)

الباشكاتب (في ابتسامةٍ ذات معنًى)**:** على ما يرام يا باشا.

الباشا (بنبرةٍ ذات معنًى): عملية إمضاء الأسهم؟
الباشكاتب: كدنا ننتهي منها اليوم.
الباشا: كدتم؟ ... وما الذي منعكم؟
الباشكاتب: فكرة قامت في رأس حامد بك أن يناقشني في موضوع «الشاكرية».
الباشا: عرفت بالطبع كيف تجيب؟
الباشكاتب: طبعًا ...
الباشا: أعرف براعتك ... إني مطمئن إليك ... وثقتي بك لا حد لها ... لا لأني رجل عاطفي فقط، بل لأني رجل يراك تدافع عن مصلحتك ... أو بعبارة أخرى عن عمارتك التي تُبنى الآن في الدرب الأحمر ...
الباشكاتب (مطرقًا): كله من خير سعادة الباشا.
الباشا (بلهجةٍ ذات معنًى): ومن خير الأسهم المكررة! ... إذا صدقت معلوماتي؛ فإن كل رقم مكرر يختفي منه سهم ... وهذا وضع يمكن أن يحتمل ... وإذا صدقت معلوماتي أيضًا فإن العمارة قد وصلت إلى الطابق الخامس ... وهذا أيضًا يمكن أن يحتمل ... ولكن نصيحتي أن يقف البناء عند هذا الحد؛ محافظةً على الأساس!
الباشكاتب: هذا أيضًا من رأيي يا سعادة الباشا.
الباشا: اتفقنا! ...

(الباب يفتح فجأة، وتدخل خيرية ...)

خيرية (باندفاع): حامد! ... أين حامد؟ ...
الباشا (يلتفت باسمًا): مرحبًا! ... مرحبًا! ...

(الباشكاتب ينسل خارجًا بسرعة.)

خيرية (مسمَّرة في الأرض كالمأخوذة): أنت؟ هنا؟
الباشا: نعم أنا ... ما كنت تتوقعين أن تجديني هنا؟! ...
خيرية: لا ...
الباشا: أما أنا فكنت أتوقع أن أجدك ذات مرة هنا.
خيرية: طبيعي أن أزور زوجي في مكتبه.
الباشا: وليس من الطبيعي أن تزوريني في مكتبي.

خيرية: لا أرى لذلك ضرورة.

الباشا: أحب هذه الصراحة! ...

خيرية: ألسنا نحظى بزيارتك لنا في منزلنا من حين إلى حين؟

الباشا: حقًّا! ... زيارة تحاولين دائمًا بمهارة أن تكون في جو عام! ... ما من مرة أردت زيارتك إلا وجدت زوجك معك أو أمك أو جارتك ... لكأنك تبادرين إلى استدعاء من يقطع خلوتنا ... لا ينقصك إلا جرس، تدقينه في النافذة ليصعد إلينا المارة والجماهير.

خيرية: ولم لا؟ ... زيادة في الترحيب بك! ...

الباشا: أهذا ما وعدتِني به؟ وعاهدتني عليه.

خيرية: بماذا وعدتك؟

الباشا: الذاكرة لا تضعف في مثل عمرك الغض ... لم تمضِ بعدُ ثلاثة شهور على تلك الليلة التي عقدنا فيها الاتفاق الذي تعرفين! ... أما أنا فقد قمت بوعدي، وها هو ذا زوجك قد أصبح مدير شركة كبرى تحمل اسمه ... وها أنا ذا قد تحليت بالكياسة واللباقة فأعددت العش الجميل الذي لم تطأه بعدُ قدماك! ...

خيرية: الظروف قضت بذلك ... مرضي كما تعلم، واعتلال صحتي طول هذه المدة اضطرني إلى ملازمة الفراش في أغلب الأيام.

الباشا: قصة مرضك هذه، اسمحي لي أن أقابلها بالتحفظ الشديد ... وإني أعلم الآن لماذا يضع بعض النساء حول نحورهن فراء الثعالب. ويقربن من ثغورهن رءوسها الصغيرة مفتوحة الآذان ... أتدرين لماذا؟ لأن هذا الصنف من النساء يلقن الثعالب دروسًا في المراوغة! ...

خيرية: ليتني أستطيع أن أروغ منك!

الباشا: بئس هذا التمني الذي ينطوي على الغدر ونكث العهود ... كان يجمل بك أن تتخذي مني أسوة ومثلًا ... وأن تحافظي على تعهداتك نحوي. كما حافظت على تعهداتي نحوك ... أنا الذي وفيت بكلمتي لك مغمض العينين، حرفًا حرفًا، وشرطًا شرطًا، كما يقضي بذلك واجب الشرف.

خيرية: الشرف! ...

الباشا: اهزئي ما شئت ... وأنكري قيمة المبادئ ... فأنت حرة في أن تكوني امرأة ليس لها وعد ولا عهد ... ولكن ما ذنبي أنا أقع فريسة لك. تستغلين نيتي الطيبة وتلعبين بي، وتعبثين بأناملك الناعمة المصبوغة بالأحمر كأنها مخالب انغمست في دمي البريء.

خيرية: يا للضحية! ... يا للضحية! ...

الباشا: تلفظينها بلذة ونهم! ... كل امرأة بالغريزة تحب أن يكون لها ضحية؛ لأنكن من فصيلة القطط والنمور! ...

خيرية: تريد الآن أن تقنعني بأنك ضحيتي.

الباشا: فأر صغير ... يحلو لك أن تمسكي به من ذيله ... وأن تفعلي به ما تشائين، وتنالي منه ما تريدين، دون أن تعطيه فرصة ليأخذ منك شيئًا! ...

خيرية: إنه يريد أن يأخذ مني كل شيء.

الباشا: إنك تبالغين.

خيرية: هذا الفأر الصغير يريد أن يقرض حبل حياتي.

الباشا: حياتك؟ ... ومن الذي صنع لك هذه الحياة، وفق ما طلبت وتمنيت وتخيلت؟

خيرية: لقد صنعت ذلك حقًّا ... ولكنك اليوم تقتضيني الثمن غاليًا! ...

الباشا: الثمن غاليًا! إنك تتكلمين بلغة السوق.

خيرية: اللغة التي تفهمها أنت!

الباشا: نعم ... في غير هذا المقام ... ولكن كياستي ولباقتي تحتمان عليَّ استعمال لغة أخرى للتعبير عن مشاعري السامية وعواطفي الحارة ...

خيرية: مشاعرك السامية لا يناسبها غير الصراحة المجردة ... اكشف عن مطالبك ... ألا تعترف أنها باهظة؟!

الباشا: لقد قبلت الصفقة ... وعرفت الثمن مقدمًا.

خيرية: ها أنت ذا ترجع بسهولة إلى لغتك الحقيقية ... نعم ... لقد قبلت وعرفت ... ولو كان الأمر يتعلق بشرفي وحده لهان ... ولكنه الآن يتعلق بشرف زوجي! ...

الباشا: شرف زوجك!

خيرية : قد أستطيع التصرف فيما أملك ... ولكني لا أستطيع التصرف فيما لا أملك! ...

الباشا: شرف زوجك؟!

خيرية: نعم ... بأي حق ألوثه أنا وأدنسه؟!

الباشا: يا له من احتيال! ... يوم كان الأمر يتعلق بك وحدك، قلت لا بد من تصحيح الوضع ... ولا بد من زوج ... فلما جاء الزوج، قلت لا بد من المحافظة على شرف الزوج ... ولكني أسارع فأدخل على قلبك الأمان ... وعلى ضميرك الاطمئنان ... وأخبرك أن زوجك لا شرف له، حتى تحافظي عليه.

خيرية: ماذا تقول؟

الباشا: إنه مزور محتال! ... وتحت يدي البراهين والمستندات ... ولم يمنعني من فضح جرائمه وتقديمه إلى النيابة ... إلا حرصي عليك وعلى سمعتك ... وإبقائي على ما بيننا من صلات وعهود.

خيرية: أنت كاذب! ... لا أصدق أن حامد ...

الباشا: لقد تزوجت لصًّا يا سيدتي! ... لا أعني فقط ذلك اللص الذي ضُبط في البيت ليلًا ... ولكن هذا اللص الجالس على هذا المكتب يسرق أموال الشركة.

خيرية: خسئت! ...

الباشا (يُخرج من جيبه سهمًا): إليك البرهان. انظري! ... هذا سهم من أسهم الشركة ... إمضاء من هذا؟ ... أليس إمضاء حامد بخطه؟ ... إذن فاعلمي أن هذا السهم مزور مكرر، مع ألوف غيره من الأسهم، لقد زورها، وعليها إمضاؤه بخط يده وباعها وقبض ثمنها، معرِّضًا مصالح المساهمين للخطر ... ولولا سلوكي النبيل نحوك ... وأخلاقي الكريمة التي لا تقدرينها، لجعلتك تبصرين بعينك هذا الزوج العزيز، والمدير المحترم مكبلًا أمام الناس في الحديد.

خيرية (كالمخاطبة لنفسها): حامد يفعل ذلك؟! ... مرتبه يكفينا ... لماذا يفعل ذلك؟

الباشا: يفعل ذلك لأنه يريد أن يثري سريعًا ... هذا الشاب الذي دخل بيتك للحصول على نقود ... قد وضع في رأسه الوصول إلى المال من أي طريق ... ولو من طريق الجريمة ... وما أنت في حياته دائمًا إلا سلم معلق على نافذة. إن روميو هذا العصر شاب يريد أن يقفز إلى نوافذ المال والجاه. ولو فتل من شعر جولييت سلمًا. وجعل من جسدها درجًا ...

خيرية: حامد لا يفكر هكذا الآن.

الباشا: الآن وفي كل وقت ... ولكنك بلهاء ... لم تستطيعي أن تكشفي حقيقته. أتظنين أن قلبك شيء يهمه أو يعنيه؟ ... أتحسبين أنه يجهل ما يفعل؟ ... إنه يفهم جيدًا حقيقة وضعه منذ الساعة الأولى، وإن كان فاته أن يفهم ذلك من قبل ... فلا يمكن أن يبقى جاهلًا حتى الآن ... هذا الشاب ليس ساذجًا، حتى يعتقد أن نبوغه وحده هو الذي يؤهله لمنصب المدير. إنه لا شك قد ساءل نفسه، من أين له هذا. وهو اليوم يدرك أن هذه القفزة الكبرى لشاب مثله لا بد أن يكون لها ثمن ... وهو يعرف هذا الثمن.

خيرية: هذا كذب وبهتان. إنه لا علم له بشيء على الإطلاق.

الباشا: أقسم لك أنه على تمام العلم. وعلى تمام الاستعداد أن يدفع الثمن. أو تدفعيه أنت عنه ... على شرط أن يحتفظ بمركزه الاجتماعي الذي وصل إليه، وأن يبقى في هذا

المستوى من الرفاهية والترف الذي اعتاد عليه ... إن زوجك هذا ليس أول شاب أعرفه من هذا الطراز!

خيرية: أنت واهم ... حامد ليس مثل غيره من الشباب الوصولي ... إنه لا يبيع مبادئه.

الباشا: أيتها الحمقاء! ... إنه يبيعها بأبخس مما تتصورين. أتظنين أنه يرضى الآن بالعودة إلى حي الأزهر! ... يكدح فيه بقروش معدودة. من أجل سواد عينيك؟! ...أحسبت أني صبرت عليك هذه الشهور الثلاثة لأني صدقت حكاية مرضك؟! ... لا يا سيدتي الصغيرة، بل لأني أردت أن أصبر على هذا الشاب حتى يعتاد هذا المستوى المرتفع من الحياة الرضية الهنية، فيعز بعدئذٍ على هذا المدير أن يهبط من حالق إلى أرض الأزقة، فيتحطم كإناء من الفخار! ...

خيرية: شيطان ...

الباشا: لقد كانت روحه مستعدة للفساد. وإني ما فعلت أكثر من أن أنلته ما أراد ... لقد نال مني بغيته ... بمنتهى السهولة، ولكنه أصبح في قبضتي كهذه الورقة (ينتزع ورقة من فوق المكتب ويطبقها في كفه) أستطيع أن ألقي به أي وقت في هذه السلة! ... (يلقي بالورقة في سلة المهملات تحت المكتب) هكذا! ...

خيرية: وأخيرًا؟!

الباشا: وأخيرًا ... أرجو أن تكوني مثله في الحكمة والتعقل، إنه يعرف قدرتي، ويدرك ما أريد منه ومنك ... وله رغبة في الطاعة ... ويميل إلى أن يمهد لي طريقي ... كما مهدت له طريقه.

خيرية: لن أصدق ذلك أبدًا ... أبدًا ... أبدًا ...

الباشا: معي البرهان.

خيرية: أرني البرهان.

الباشا: أصدرت إليه أمري بالسفر ... الليلة إلى الإسكندرية، في مهمة صورية لا تستدعي عادةً ذهاب المدير ... وهو أذكى من أن يعمى عن المقصود من هذا الإبعاد.

خيرية: لن يسافر ...

الباشا: سيسافر ... ولن يعترض، ولن يرفض، وسيتركك الليلة وحدك، وسأزورك أنا في بيتك، في تمام التاسعة وأصحبك إلى السينما، ثم نخرج منها إلى العش الجميل حيث تتناولين معي عشاءً خفيفًا لطيفًا.

خيرية: لن يتركني الليلة.

الباشا: سيتركك الليلة ... لي ... لي ...

خيرية: أأنت واثق من نذالته؟ ...

الباشا: واثق من حكمته! ...

خيرية: حكمته؟

الباشا: على شرط أن تدعيه يتصرف بمحض اختياره ... لا تحاولي التأثير على إرادته بأفكارك ... ولا تركعي عند قدميه، تتوسلين إليه أن يبقى.

خيرية: لن أركع أبدًا عند قدمَي زوج من هذا الطراز! ... كرامتي تأبى ذلك.

الباشا: مرحى ... مرحى ... إنك دائمًا خيرية التي أعرفها ... ذكية ... فطنة ... تتفتح عيناك على الحقائق، في الوقت المناسب.

خيرية (تتحرك للانصراف): أرى أن الوقت الآن غير مناسب لبقائي هنا.

الباشا (وهو يشيعها إلى الباب): أتعودين إلى بيتك؟

خيرية (كالشاردة): لا أدري ...

الباشا: أغلب ظني أن زوجك الآن في البيت يعد حقيبة السفر، كوني عند كلمتك هذه المرة.

خيرية (كالمخاطبة لنفسها): سأتركه يتصرف بمطلق حريته!

الباشا: إلى اللقاء ... خيرية ... الليلة ... لا تنسي ... في تمام التاسعة.

(تخرج خيرية من الباب سريعًا دون أن تجيب، ويعود الباشا وهو مرح يدندن ... وعندئذٍ يُسمع نقر على الباب، ثم يطل السكرتير برفق.)

السكرتير: سعادة الباشا يأذن.

الباشا (يلتفت): خيرًا.

السكرتير: مكتب سعادة الباشا اتصل تليفونيًّا الآن ... يوجد زوار في الانتظار، هناك وفد من جمعية أنصار ...

الباشا (مقاطعًا): آه ... نعم ... ولكني لن أعود الآن إلى مكتبي ... إني منصرف.

السكرتير (بتردد): يظهر أنهم كانوا على موعد ...

الباشا (ينظر في ساعته): إذا استطاعوا أن يلحقوا بي هنا في مدى عشر دقائق فإني أنتظرهم ... أخطر مكتبي بذلك.

(السكرتير يخرج، ويتمشى الباشا في القاعة ويتأمل الخرائط والإحصاءات على الحائط. وعندئذٍ يفتح باب جانبي آخر بهدوء وتدخل امرأة في مقتبل العمر، وتسعل قليلًا فيلتفت إليها الباشا.)

الباشا (مفاجأً)**:** ناهد؟! ... (بخشونة) ماذا جئت تصنعين هنا؟

ناهد: علمت أنك هنا ... وإني أعرف أنك لا تحب رؤيتي اليوم ... وأنك تتهرب من مقابلتي ... فلم أرَ من وسيلة إلا أن أدخل عليك هكذا. بغير استئذان.

الباشا (بجفاء)**:** ماذا تريدين مني؟

ناهد: أن تصحح وضعي.

الباشا: حقًّا! ... لم يبقَ لي الآن في الحياة من شغل إلا أن أصحح الأوضاع.

ناهد: سيطردونني من المدرسة ... ولن أجد عملًا في مدرسة أخرى ... فقد سرت الإشاعة أني خليلتك.

الباشا: ما عدت الآن خليلتي ... لقد انتهى كل شيء بيني وبينك ... كما تعلمين.

ناهد: لقد كنت وعدتني بالزواج.

الباشا: أأنت مجنونة؟ ... إني رجل متزوج.

ناهد: وما الذي يمنع؟ ... لقد قلت لي إنك ستعقد عليَّ وأكون زوجتك الثانية، المحظية المحبوبة في الستر بلا ضجة ولا ضوضاء؟! ... أتنكر هذا القول اليوم؟! ...

الباشا: أجئت اليوم لتذكريني بكلام قديم ... قيل منذ عامين على سبيل المجاملة؟! لا بد أنك قد أصبت بمس في عقلك!

ناهد: لقد أصبت بعار لن يمحوه إلا أن تفي بوعدك ولو لمدة يوم واحد ثم تطلقني.

الباشا: هذا إجراء متأخر ... وليس عندي اليوم وقت لهذه المساخر.

ناهد: ليس الذنب ذنبي. لقد كنت تماطل وتؤجل ... وتخدرنا بمعسول القول إلى أن فتر اهتمامك بنا ... وقلَّت زياراتك لنا ... وأخيرًا جاء اليوم الذي انقطعت فيه العلاقات بيننا دفعة واحدة ... فهجرتني وطردت أخي ... أليس في قلبك رحمة؟ ... أين الرحمة في قلبك؟

الباشا: أنت تعلمين أني قد صفيت الموقف معك نهائيًّا ... ومع أخيك ... بكل كرم وسخاء.

ناهد: ماذا تعني؟ ... أنا أقبل منك ثمنًا لعرضي؟! ...

الباشا: لقد قبل أخوك الثمن وقبضه وانصرف ... ولكنه عاد يطالب بالمزيد. وها أنت ذي تعودين لفتح موضوع التعويض ... تخفينه تحت ستار تلك اللغة القديمة التي لا تأثير

لها في المجتمع العصري، العِرض والعار! أنت أول من لا يقتنع بهذا الكلام العتيق، وأول من يدرك أن علاج ذلك سهل الآن ... ففي شركاتي عشرات من الشبان مستعدين للزواج منك ... وستر عارك المزعوم ... ولكنك لا ترين ذلك ... أنت إنما تريدين اللقمة الكبرى والمغنم الأكبر.

ناهد: أنت وغد ...

الباشا: لو كنت رجلًا لصفعتك في الحال ... وطردتك من هذا المكان كما يطرد الكلب ... ولكنك سيدة ... يرغمني الأدب على احتمالك.

ناهد: لك الحق أن تفعل أكثر من ذلك ... لقد أخذتني لحمًا ورميتني عظمًا.

الباشا: من الذي دفعك إلى المجيء هنا اليوم؟ ... هو أخوك شاكر؟

ناهد: لا ... بل طمعي في مروءتك.

الباشا: ألا تعلمين أن شاكر يلاحقني منذ مدة بالخطابات والتليفونات؟ أحيانًا يتوسل ويتمسكن ... وأحيانًا يتهدد ويتوعد ... حتى ضاق صدري ... وأعلنته أخيرًا أني سأبلغ أمره إلى النيابة.

ناهد: لقد أخبرني أنك تتهمه بالتزوير والاحتيال.

الباشا: لست أنا وحدي ... بل أعضاء مجلس الإدارة وكل المساهمين.

ناهد: أنت تعلم أنه بريء ...

الباشا: ومن الذي ارتكب الجريمة ... ووقع بخطه؟ ... عفريت من الجن، أو شبح من الأشباح؟!

ناهد: أنصحك ألا تبلغ.

الباشا (هازئًا): تنصحينني؟

ناهد: لا تدفع به إلى اليأس ... لقد لمحت معه مسدسًا.

الباشا (هازئًا): ليطلقه على من؟ ... عليَّ أو على نفسه؟

ناهد: لست أدري.

الباشا: عين أسلوبه في التهديد والوعيد! ... عصابة صغيرة بارعة من الجيل الجديد.

ناهد: من خلقك أنت وصنعك.

الباشا: من صنعي أنا؟!

ناهد: ومن غرسك وزرعك. كنا في بيتنا المتواضع أنا وأخي نعيش آمنين، نسعى إلى رزقنا البسيط بفخر، ونأكل لقمتنا الطاهرة بعرق الجبين، نسير في الحياة بخطانا الطبيعية البطيئة ... ولكننا نؤمن بقيمة الفضيلة ومعنى الشرف ونعتقد أن لهما نورًا قدسيًّا ... هو أبقى للنفس من بريق الذهب وأضواء اللآلئ! ... كنا أغنياء بالنفوس ...

أقوياء بالمبدأ ... نرى الثروة شيئًا في قلوبنا ... لا رداء على الأبدان! ... فجئت أنت، ودخلت بيتنا؛ فكأنه الشيطان الرجيم جاء يقلب حياتنا رأسًا على عقب.

الباشا: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم (يسبح بالسبحة).

ناهد: نعم ... استعذ بالله من نفسك ... لقد علمتنا أشياء ما كنا نعلمها. وأريتنا طريق المال سهلًا ميسورًا ... وأفهمتنا أنه هو كل شيء، وبهرتنا به، وأغريتنا بهالته ... فسرنا وراءك نتخذك إمامًا ... ونتبع خطاك دون أن نبصر في أي طريق نسير.

الباشا: أيتها المعلمة ... هذا كلام تخاطبين به تلاميذك في رياض الأطفال.

ناهد: لا تهزأ بمهنتي ... إن قلبي يتمزق ... كلما تذكرت أني لم أكن جديرة بتعليم الجيل الصغير! ... ماذا أعلمه؟ ... وقد فسدت نفسي ... وزاغت عقيدتي وفقدت مُثُلي وأضعت مبادئي.

الباشا: ومن المسئول؟

ناهد: أنت.

الباشا: أما أنتم فلا ذنب لكم ولا جريرة! ... أبرياء، أطهار، بررة ... تبيعون مبادئكم التي تقولون إنها غالية نفيسة ... وتقبضون الثمن وتضيعونه ... ثم تصيحون ... لقد خسرنا ... إن كل صفقة أيتها المدرسة المهذبة، تحتمل الربح والخسارة، وكل من باع شيئًا يجب أن يقدِّر أنه قد يربح وقد يخسر ... ولكنكم لا تقدرون دائمًا غير الربح ... الربح ... الربح.

ناهد: إنك تكلمني بلغة التجارة ... نحن لسنا تجارًا.

الباشا: مغامرون ... أنتم مغامرون ... وقانون المغامرة مثل قانون التجارة.

ناهد: لا تنسَ أنَّا أطفال بالنسبة إليك ... وأنَّا كنا نراك في مقام المنقذ الكريم والمرشد الرحيم ... وكان عليك أنت أن تقودنا إلى الخير والفضل والغنيمة؛ لا إلى الضياع والفساد والجريمة ...

الباشا: أعترف أني ما فكرت في أن أقودكم إلى شيء.

ناهد: هذا صحيح ... إنك ما كنت تفكر قط إلا في نفسك ... وفي أن تتخذ منا أدوات لأغراضك.

الباشا: حذارِ أن تنكري أني بسطت لكم يدي ... وأني ما ضننت عليكم بشيء. وما رفضت لكم مطلبًا ...

ناهد: حقًّا ... يوم كنت ترجو شيئًا مني ...

الباشا (مستمرًّا): وأني أغرقتكم في بحار نعمتي.
ناهد: نعم ... أغرقتنا ... أغرقتنا ... أغرقتنا وتركتنا.
الباشا: لن تغرقوا ... إني أعرف أنكم تحسنون السباحة.
ناهد (في استعطاف): ألن تمد إلينا يدك؟
الباشا (ينظر في ساعته): ليس الآن ... الآن أنا مشغول ... مشغول جدًّا.
ناهد (في توسل): ألقِ إليَّ ببعض الأمل.
الباشا: ومن يمنعك أن تعيشي بالأمل.
ناهد: أتوسل إليك ... أستحلفك بحبك لي ... حبك الذي مات.
الباشا (يلتفت إلى الباب الذي يفتح): صه.

(يظهر السكرتير على العتبة.)

السكرتير: سعادة الباشا! حضر وفد جمعية ...
الباشا (في ارتباك): لحظة ... لحظة ... (يلتفت إلى ناهد) أرجوك يا ناهد ... انصرفي الآن بسرعة (يسمع صوت وفد الجمعية بالباب؛ فيدفع ناهد إلى حجرة جانبية ويغلق عليها) اختبئي هنا لحظة (ثم يتجه إلى الباب ويستقبل أعضاء وفد الجمعية الداخلين) أهلًا وسهلًا.
الوفد: أهلًا بسعادة الباشا.
الباشا: أنا في غاية السرور بهذه الفرصة السعيدة.
الوفد (بلسان كبير الأعضاء): بل نحن في غاية السرور ... إذ شرفنا سعادة الباشا بقبول الرياسة الفخرية لجمعية أنصار الفضيلة.
الباشا (في تواضع مصطنع): هذا شرف لي.
الوفد (بلسان كبيرهم): بل شرف للجمعية يا سعادة الباشا ... فإن ماضيك المجيد في أعمال الخير له في النفوس أثر لا يمحى ... وجهادك في المجتمع من أجل الإصلاح له صفحات مشهورة ... ومساعيك في صيانة الأخلاق لها مواقف مشكورة.
الباشا (يُطرق متواضعًا ويسبح بالسبحة ويتمتم): أستغفر الله ... أستغفر الله.
الوفد (مستمرًّا): وأنت في المجتمع قطب من أقطاب البر والفضل والخلق. يلهج الناس باسمك في كل مكان، جاعلين منك المثل الذي يحتذى به في السير السليم والسلوك القويم ... رافعين إليك العيون ... مشيرين إليك بالبنان.
الباشا: أستغفر الله ... أستغفر الله.

الوفد (مستمرًّا)**:** فإذا تفضلت ونزلت وقبلت رياسة هذه الجمعية ... فإنما هو فضل من أفضالك ... وحسنة من حسناتك ... وكسب للأخلاق ... ونصر للفضيلة.

الباشا (يسبح بالسبحة)**:** أستغفر الله (يلمح حركة بباب الحجرة التي بها ناهد).

(يرى الباب يفتح قليلًا وتحاول ناهد أن تطل برأسها لترى ماذا يحدث بحجرة المكتب ... فيسرع الباشا إلى الباب بحركة خفية لا ينتبه إليها أعضاء الجمعية، ويغلق الباب بعنف وهو يقول كأنه يؤنب ناهد:)

أستغفر الله ... أستغفر الله.

كبير الأعضاء (يلتفت إلى وفد الجمعية صائحًا)**:** اهتفوا معي ... فليحيَ رئيس جمعية أنصار الفضيلة! ...

الوفد (هاتفًا)**:** يحيَ رئيس جمعية أنصار الفضيلة.

(بينما الباشا يهز رأسه بالتحية ويضع يديه على رأسه شاكرًا.)

ستار

الفصل الرابع

(بهو في شقة «حامد» الفاخرة بجاردن سيتي. أثاث يدل على ذوق ورخاء. الوقت ليل والضوء ينبعث ورديًّا باهتًا من أباجور كبير في أحد الأركان. البهو خالٍ والساعة تدق تسع دقات، وعندئذٍ يرن جرس باب الشقة. ثم تُسمع حركة فتحه وإغلاقه. ويظهر الباشا في أتم أناقة، وخلفه الخادم.)

الباشا (للخادم)**:** حامد بك ليس هنا بالطبع؟!

الخادم: البيك سافر.

الباشا (بلهجة العارف الواثق)**:** مؤكد ... والست؟ ...

الخادم: الست في حجرتها ... وهي الآن ...

الباشا (مقاطعًا)**:** عظيم ... عظيم ... اذهب أنت لعملك ... لا حاجة بي الآن إليك.

الخادم: نحضر القهوة لسعادة الباشا؟ ...

الباشا: لا تحضر شيئًا ... سنخرج بعد قليل (ينظر في ساعته ويضعها على أذنه) كم الساعة الآن؟

الخادم: دقت التاسعة منذ لحظة.

الباشا (كالمخاطب لنفسه)**:** في موعدي بالضبط ... (يلتفت إلى الخادم) اذهب أنت إلى عملك! ...

الخادم (متحركًا)**:** أخبر الست؟

الباشا (يمنعه بإشارة)**:** لا ... لا ... أنا أخبرها بنفسي ... اذهب أنت ...

(الخادم يدير زر الكهرباء في النجفة الكبرى فيضيء البهو ضوءًا ساطعًا ثم يخرج.)

الباشا (وكان قد تهيأ للتحرك نحو باب الحجرة الثانية)**:** يا لك من أحمق! أضعت النور الوردي الشاعري! (يلقي نظرة أخيرة على هندامه في مرآة البهو ... ثم يقترب من باب الحجرة وينقر عليه بلطف ويهمس برقة) خيرية ... خيرية.

(يفتح الباب فيتراجع الباشا من المفاجأة ... فقد ظهرت الأم تنظر إليه نظرات قاسية.)

الباشا (من بين شفتيه)**:** أنت ... هنا؟ ... ما معنى وجودك هنا الساعة؟!

الأم: عليك أن تفسر معنى وجودك أنت أولًا ...

الباشا: ليس لأحد أن يطالبني بحساب أو تفسير لتصرفاتي.

الأم: تصرفاتك لا تحتاج إلى تفسير! ... لقد أطلعتني هي اليوم على كل شيء ... هلم معي بلا ضوضاء إلى منزلنا ... أرجوك ... هلم بنا ... اترك ابنتي.

الباشا: أترك ابنتك؟

الأم: نعم ... أتوسل إليك أن تترك ابنتي ... لأنك لن تصل إليها إلا على جثتي، أفهمت؟ ... خير لنا يا محمود أن نغادر هذا المكان ... ونمضي إلى بيتنا بكل هدوء ... قبل أن تقع الكارثة ... قلبي يحدثني أن كارثة ستقع ...

الباشا: ما هذا الذي تقولين؟

الأم: لقد صممت أن أقف الليلة على باب ابنتي ... أذود عنها وأحميها ... ما عدت أطيق عذابي الصامت الذي عشت فيه زمنًا ... إني ما كنت عمياء ولا بلهاء ... بل زوجة محبة مخلصة ... ترى وتلمح وتلاحظ تلك الأشياء الغريبة المريبة التي تجري حولها.

الباشا: ماذا يجري حولك؟

الأم: محمود! ... لا تحاول الآن أن تنكر ... لطالما توليت أنا عنك الدفاع أمام قلبي ... إنك تعلم أني ما لفظت يومًا كلمة نمَّت على ارتيابي فيك ... كنت أحرص دائمًا على إخفاء ما خامرني منك ... احترامًا لنفسي ولك ... كان ذلك مبدئي معك منذ زواجنا ... أسمعت مني ذات مرة كلمة لوم أو تأنيب أو شك أو ارتياب؟ ... لم يحدث قط ... ولكن الأمر يتعلق الآن بابنتي! ...

الباشا: ماذا قالت لك ابنتك؟

الأم: لم تقل لي شيئًا قبل اليوم ... اليوم فقط استدعتني لتفضي إليَّ بالحقيقة ... بعد أن كتمتها عني طويلًا هي الأخرى ... وجعلتني أتساءل في خلوتي عن سر كتمانها ...

وأتقلب على لهب العذاب بين الشك واليقين ... آلام مروعة ... ما ذاقها زوجة قط ولا أم ... لقد أيقظت في قلبي أيها الزوج الظالم الآثم من المشاعر الفظيعة والغرائز البشعة ما ندر أن يعرفه بشر! ... تلك النظرات من عينيك لخيرية ... كانت أحيانًا تلفح قلبي كأنها جمرات ... ولكني كنت أقول ... محاولةً إقناع نفسي ... إنها نظرات حنان من أب عطوف لم يرزق الخلف ... كنت أسأل الله في أعماق الليل وأنا أكتم زفراتي بمنديلي ... وأبلل وسائدي بالدموع أن لا يكون الأمر غير ذلك ... محمود، لماذا عذبتني هكذا؟ ... أي شيطان دخل بدنك، فجعلك تفرق بين الزوجة وزوجها والأم وابنتها؟ أرجوك يا محمود ... أتوسل إليك ... أقبل قدمك ... عد إنسانًا ... إنسانًا ذا قلب رحيم ونفس كريمة ... أنقذ ما بقي مني ... وكافئني على صبري ... لقد برتني الآلام وبرحت بي الهواجس ... فبدا عليَّ الكبر قبل الأوان ... ارحمني وضمد جراحي ... إن قليلًا من حنانك يعيد إليَّ بعض شبابي ... هلم بنا إلى منزلنا ... إلى بيتنا نحن (تتناول يده وتجذبه برفق).

الباشا (يسحب يده منها): أنت ولا شك جننت ... ذهبت بعقلك الغيرة من ابنتك الشابة ... هذا كل ما في الأمر ... يحسن بك أن تعودي الآن إلى منزلك وتلزمي فراشك، وتتناولي شرابًا دافئًا مهدئًا للأعصاب.

الأم: وأنت؟ ... ألا تعود معي؟

الباشا: إني جئت لمقابلة خيرية في مسألة خاصة بها، وإن شئت إيضاحًا فهي مسألة خاصة بزوجها، وليس من المناسب أن تطلعي على ذلك.

الأم: لا أظنها تخفي عني شيئًا، حتى وإن كان خاصًّا بزوجها.

الباشا: أنت مغفلة! ... لقد اعترفتِ الساعة أنها كانت تكتم عنك أشياء كثيرة.

الأم: فعلت ذلك حقًّا، حتى لا تؤذي شعوري.

الباشا: لهذا السبب نفسه، أخفت عنك كل شيء يتعلق بزوجها.

الأم: أتكتم عني أنا أمها، ما لا تكتمه عنك أنت ... أهذا معقول!

الباشا: معقول جدًّا، وإذا أردت الدليل، فارجعي بذاكرتك الضعيفة إلى ثلاثة أشهر فقط، إلى تلك الليلة التي أعلنت فيها أنا خطبة ابنتك إلى حامد، أكنت تعرفين هذا الشخص من قبل! ... ألست أنا الذي قدمته إليك! ألست أنا وحدي الذي كنت أعرف ما بينه وبين ابنتك! ... ألست أنا الذي توليت إنقاذ الموقف، منعًا للفضيحة، وحفظًا لسمعة خيرية وسمعتك!

الأم: لقد كانت لك مآرب أخرى من وراء ذلك، مآرب أنت تعرفها، ولا حاجة بي إلى ذكرها الآن.

الباشا: بل اذكريها الآن من فضلك.

الأم: لقد سهلت لها الزواج من هذا الشاب ... ليسهل عليك الوصول إليها.

الباشا: أهي التي قالت لك ذلك! ... يا لها إذن من ناكرة للجميل ... أرادت أن تظهر أمام عينيك في صورة الحمَل ... وأن تظهرني في صورة الذئب.

الأم: لا أصدق ما تقول في خيرية.

الباشا: وتصدقين ما تقول فيَّ أنا؟ ... أقدم إليك نصيحة خالصة، عودي إلى البيت ... اذهبي الآن إلى بيتك ... وضعي كل ثقتك في زوجك.

الأم: لن أتركك هنا ... وحدك.

الباشا: عدت إلى الغيرة ... الغيرة العمياء التي تنهش قلبك في ظلام الأوهام.

الأم: مهما يكن من أمر ... فإن واجبي الآن أن أبقى هنا معك، وأن أذهب معك.

الباشا: سأقابل خيرية بمفردي ... وستذهبين إلى البيت وحدك.

الأم: لن أذهب وحدي ... لن أتركك هنا ... لقد توسلت إليَّ خيرية أن أحميها الليلة منك! ...

الباشا: تحمينها مني؟ ... وحش مفترس له مخالب سينشبها في عنقها (يريها أصابعه) ها هي أصابعي قد انقلبت مخالب! ... ماذا يصور لك وهمك أيضًا؟ ... سامحك الله أيتها الزوجة الوفية ... أهذا رأيك في زوجك ... زوجك الذي أجمع الناس على أنه سند للأخلاق، ونصير للفضيلة ... ألا تقرئين الصحف؟

الأم: نعم ... قرأت فيها كثيرًا أنك قطب من أقطاب الفضيلة والأخلاق ...

الباشا: قرأت ذلك بحروف مطبوعة ولم تصدقي أيتها الغارقة في الوساوس، ماذا بعد شهادة الصحف والمجتمع والرأي العام! ...

الأم: ابنتي لو سمعتها الليلة، وهي ترتجف خوفًا منك، وترجو مني أن أبقى بجانبها، كي أحميها وأدرأ عنها.

الباشا: معذورة، إنها تلتمس الحماية حقًّا، لا لنفسها، ولكن لشخص آخر، هو وحده الذي يتعرض الآن للخطر، أتدرين من هو؟

الأم: من هو!

الباشا: زوجها حامد؛ إنها لا تريد مقابلتي الليلة، حتى لا تسمع من فمي ما أنا قائل فيه، قول لا يسر، ولكنه مدموغ بالإثبات والدليل، وإن رقة حاشيتي وعلو تربيتي، يأبيان عليَّ أن أزيد في أوجاعك، وأخوض في سمعة شخص، إلا أمام من هي ألصق الناس به، ولعلها تنصحه أو تنقذه من ورطته.

الأم: ورطته؟

الباشا: نعم ورطة تتعلق بذمته ونزاهته في الشركة التي استؤمن على إدارتها ... أنت لا تجهلين البيئة التي انتشلناه منها ... ولكن العرق دساس ... والطبع غلاب ... أستغفر الله ... لا تحرجيني ... لا تحرجيني ... ولا تدفعيني إلى الكلام في غيبته ... المسألة كما ترين ... لا تتصل بك ... وليس في يدك حلها ... اتركيني أتدبر مع خيرية الأمر وأنقذ ما يمكن إنقاذه.

الأم: إذا صح ما تقول ... فما الضرر أن أكون معكما ... سأبقى هنا ولن أذهب إلا معك.

الباشا (بعنف)**:** ستذهبين وحدك ... الآن ... وبأسرع ما تستطيعين؛ لأن صدري قد ضاق، وصبري قد نفد.

الأم: إني أرفض الانصراف.

الباشا (بقوة)**:** آمرك أن تنصرفي إلى بيتك الآن ...

الأم: تأمرني! ... بأي حق.

الباشا: بما لي من حق الأمر، وما عليك من واجب الطاعة.

الأم: سأبقى لأرى ما يكون منك.

الباشا: تتحدَّين؟! ... لم أخطئ ساعة قرأت في وجهك نية التحدي، اذهبي إلى بيتك بالحسنى.

الأم: وإذا لم أذهب.

الباشا: إذا لم تذهبي إلى بيتك في الحال؛ فأنت طالق.

الأم (في صيحة مكتومة)**:** طالق! ...

(تظهر عندئذٍ خيرية خارجةً من الحجرة الجانبية، وتهرع إلى أمها.)

خيرية: أماه! ... انصرفي إلى بيتك ... أرجوك ... أرجوك ... انصرفي في الحال إلى بيتك.

الأم: أسمعت اليمين!

خيرية: اعذريه ... انصرفي في الحال ... الذنب ذنبي أنا يا أمي ... لقد كذبت عليك، وافتريت عليه.

الأم: كذبت عليَّ؟!

خيرية: كل ما قلت لك اليوم زور وبهتان.

الأم: ما هذا الكلام يا خيرية! ... وما رأيت أنا بعيني زور وبهتان؟!

خيرية : نعم ... نعم ... اذهبي إلى بيتك.

الأم (تنظر إلى ابنتها مفكرة مترددة ... ثم تتحرك بعزم)**:** وهو كذلك. لقد فهمت الآن ما ينبغي أن أفعل.

(وتخرج سريعًا؛ ويسمع صوت باب الشقة يفتح ثم يغلق وخيرية في مكانها مطرقة.)

الباشا (لخيرية)**:** مناورة بارعة وتمثيل متقن.

خيرية: كان يجب أن أفعل ذلك لأنقذ أمي.

الباشا: أتراها اقتنعت بكلامك حقًّا ... أم خافت يمين الطلاق ... كما خفت عليها منه ... ومثلت هي الأخرى بإتقان ... لتنسحب بلباقة.

خيرية: أرجو أن تكون اقتنعت ... ففي ذلك راحة لها ... ما كان ينبغي أن أقحمها في مشكلاتي ... إني لست طفلة ... إني أستطيع أن أدافع عن نفسي، وأن أواجه كل خطر بمفردي ... حتى وإن كان الخطر هو دناءة رجل مثلك ... والآن اخرج من هنا.

الباشا: لن أخرج قبل أن أحدثك عن زوجك؟ ... زوجك هذا الذي يحرص على مركزه قبل أن يحرص عليك أنت ... أين هو الليلة؟ ... سافر كما أمرته أنا وكما أكدت لك ... لقد عارضتني وكذَّبتني في مكتبه اليوم بالشركة وما صدقت قط أنه سيسافر ويدعك لي ... تمضين الليلة معي ... أين هو؟ ... أين هو هذا الزوج المحب المخلص الغيور؟ ... أين هو ... أجيبي.

خيرية (مطرقة)**:** سافر ...

الباشا: نعم ... سافر حقًّا ... هل عندك تعليل لسفره غير ما ذكرت لك؟

خيرية (ترفع رأسها بقوة)**:** لا ... ولا أريد أن أدافع عنه هو الآخر.

الباشا: أرأيته قبل السفر؟

خيرية: رأيته ولم أحادثه كما وعدت ... ولم يحادثني وأخذ حقيبته وانصرف.

الباشا: نعم ... انصرف إلى ما يهمه من هذه الحياة.

خيرية: هو حر ينصرف إلى ما يشاء ...

الباشا: وأنت حرة تنصرفين إلى ما تشائين.

خيرية: إن لي مبادئي ونظراتي في الحياة ...

الباشا: نظراتك الصائبة تستطيع على كل حال، أن تميز بين شخص يأخذ منك ويرتفع على كتفيك ... وشخص يعطيك ويجثو عند قدميك.

خيرية: لا أريد أن أدخل الآن في مجال المفاضلة والتمييز.

الباشا: أفهم ظرفك المؤلم ... لقد صدمت ... ليس أقسى على الزوجة من تلك اللحظة التي يتضح لها فيها أن زوجها يهجرها ويهملها، سواء أكانت تحب هذا الزوج أم تكرهه، فإن كرامة الزوجة تثور لمجرد الإهمال، إني أرثي لك يا خيرية.

خيرية: أرجو أن ترثي أيضًا لأمي ... فإن حظها ليس أسعد من حظي.

الباشا: حظك أنت هو العاثر المنكود؛ هذا الشاب العامل في المكتبة الأحمدية كان يجب أن يعبدك عبادة ... أنت التي علمته كيف يسكن شقة فاخرة في «جاردن سيتي» ... أما أمك فقد أخذتها أنا من بيتها القديم في حي متواضع لأضعها في «فيلا» باذخة في حي الزمالك.

خيرية: أنت دائمًا هكذا ... تجعل للثراء كل القيمة في الحياة.

الباشا: وزوجك؟ ... هذا الشاب الذي كفر بك وبقلبك ... أخبريني ما هي أهدافه العليا في الحياة؟! ...

خيرية: هي الأهداف التي تعلمها منك!

الباشا: مني أنا؟! ... نعم ... كل كارثة تحيق بك أنا علتها ... وكل مصيبة تنزل بك أنا سببها ... وكل شخص يسرقك أنا ضامنه ... وكل إنسان يطعنك أنا ديته ... أنت في سَورة غضبك وأزمة غيظك ... في حاجة إلى إناء تضربين به الأرض ... وحائط تقذفينه بأمتعتك ... وبريء تُلقين بتهمك في وجهه. إنه ليسرني يا خيرية أن أكون في يدك كل هذه الأشياء التي نصيبها التحطيم ما دام في ذلك تهدئة لروعك ... لقد جئت الليلة ... وأنا متأكد أن نقمتك على زوجك الوغد ... لن تنفجر إلا في صدري أنا.

خيرية: لا تقل عن زوجي إنه وغد.

الباشا: تحبينه! ... بعد كل ذلك.

خيرية: ليس الحب ... بل كرامتي ...

الباشا: كرامتك التي داسها هذا الزوج الذي لم يقدرك قدرك.

خيرية: إنه حقًّا لم يقدرني قدري ... ولكن ...

الباشا: ولكنك امرأة من ذلك الصنف الذي لا يحب من الرجال إلا ذلك الذي يصفع وجهها، ويأكل من جيبها، ويأخذ من جعبتها ولا يعطيها غير الأجوف من الكلام (يلاحظ أن خيرية قد أطرقت وبدا عليها الألم) ... عفوًا يا خيرية ... أنت تعلمين أني ما قصدت إيلامك أو إهانتك ... إنما أقصد مصلحتك ... وجهك شاحب ... وعيناك غائرتان ... قد رسم

الهم تحت جفنيك خطًّا أسود ... أتستطيع ساعات قليلة من الغيظ والكمد أن تُحدث في نضارتك كل هذا الأثر! ... قومي انظري إلى وجهك في المرآة ... أيسرُّك أن تذبلي كل هذا الذبول! ...

خيرية: لا شأن لك بوجهي.

الباشا: تقولينها بتحدٍّ ... ولكنك ككل امرأة ... لا تبصرين وجهك الحقيقي بل الوجه الذي تريدينه لنفسك.

خيرية: وهل تبصر أنت وجهك الحقيقي! ...

الباشا: بالطبع.

خيرية: أوَلم تخَف منه وتخجل؛ ويستولي عليك الذعر والاشمئزاز؟

الباشا (ناظرًا إلى المرآة)**:** يا للهول! ... أهو إلى هذا الحد قبيح؟

خيرية (تشير إلى وجهه)**:** لست أقصد وجهك هذا.

الباشا: أعرف ما تقصدين، وإني لأسأل نفسي كثيرًا ... ما جريمتي عندك؟ ... ما ذنبي الذي استحققت عليه كل هذا الازدراء منك وكل هذه البغضاء؟ ... هل حرمتك من نعمة؟ ... هل ضننت عليك بخير؟ ... هل بددت لك ميراثًا؟ ... هل أكلت لك مالًا؟ ... هل سحقت لك قلبًا؟ ... هل اتخذتك وسيلة للثراء أو سلمًا للوصول؟ ... ما جنايتي التي جعلتني في نظرك شريرًا مخيفًا ... إني أبحث فلا أجد لي غير جريمة واحدة هي ... أني أحببتك ... هل حبي لك جريمة؟ ...

خيرية: نعم ... جريمة ... أتجهل ذلك؟ ... جريمة منكرة ... جريمة يجب أن يحمر لها وجهك خجلًا.

الباشا: لماذا! ... أريد أن أفهم ...

خيرية: لا حاجة بي إلى إفهامك ... لأنك فاهم؛ وفاهم؛ وفاهم.

الباشا: إذن قلبي لا يفهم ... ولا أستطيع أن أرغمه على الفهم؛ لأنه ليس ملكي. إنه طائر حر، إذا طار يومًا وحط على يدك ... فلا ذنب لك ولا ذنب لي ... إن رحمتك تحتم عليك عندئذٍ أن لا تذبحيه ولا تخنقيه ... ولا تؤاخذيه بجرم؛ بل تمسحي على جناحه برفق، وتبقيه، وتقدمي إليه الحب ... خيرية، إن كل ما أطلب إليك الآن من زاد شيء زهيد ... ابتسامة! ابتسامة منك الساعة ... هي لي أكثر من غذاء ... إنها دواء ... ابتسمي ... هذه الابتسامة خير لي من البرشامة ...

خيرية: لا أريد أن أبتسم ... أريد أن تنصرف ...

الباشا: وحدي؟ ... أنصرف وحدي؟ ... لن أنصرف وحدي ... اذهبي الآن وارتدي ثياب الخروج ... ولنمضِ معًا إلى السينما ... ولترفهي عن نفسك الكئيبة (ينظر في ساعته) ... لم يزل أمامنا في الوقت متسع ... أسرعي والبسي في خمس دقائق! ...

خيرية: أنت جننت؟ ... إني أمام مجنون ...

الباشا: أي بأس في الخروج معي؟

خيرية: لن أخرج معك ... بل لن أخرج وزوجي غائب ... إني لم أستأذنه.

الباشا: تستأذنين هذا الزوج؟ هذا الزوج الذي سافر وهو يعلم أني سألقاك الليلة ...؟ إنه قد أذن لك وذهب وتركك لي ...

خيرية: تفريط الزوج في واجباته لا يبيح للزوجة أن تفرط في واجباتها ...

الباشا: أيتها الحمقاء ... لقد دفع بك إلى ذراعيَّ ... لقد ألقى بك في أحضاني ...

خيرية: إني لست سلعة ولا دمية حتى يلقي بي حيث شاء ... إني امرأة آدمية ذات كرامة ... وإني عندما أرفض الدنس لا أراعي في ذلك سمعته هو بقدر ما أراعي سمعتي أنا ...

الباشا: كلمات جوفاء استحوذت على عقلك ... وأسدلت على عينيك ستارًا من دخان يمنعك من رؤية مباهج الدنيا ... أنت مريضة، ولكن في مقدوري علاجك ... علاج سهل قد ترين فيه أول الأمر شيئًا من الجرأة ... الطبيب يجب أن يكون جريئًا في بعض الحالات ... قد يصدم المريض في البداية ولكن الشعور بالراحة يغمره بعد قليل ...

(يدنو من خيرية فتتراجع.)

خيرية (برعب): ابتعد ... ابتعد ...

الباشا: سأسقيك أنا الدواء من شفتي ...

خيرية (تصفعه): لا تمسني ... أيها الوقح ... أيها الوحش ...

الباشا (بوحشية وهو يدنو منها): مريضتي ... لن تفلتي مني الليلة.

خيرية (صائحة): لا تدنُ مني ... لا تدنُ مني! ...

(وفجأة تظهر الأم قادمة من باب.)

الأم (بصوت أجش): دع ابنتي ...

خيرية (تتنفس): أمي ...

الأم: دع ابنتي ... واخرج من هنا ...

الباشا: أكنت في الشقة إذن ... لم تذهبي ... تظاهرت بفتح الباب وإغلاقه لتبقي وتتجسسي ...

الأم: دع ابنتي ... واخرج من هنا ...

الباشا: ما هذا البريق المخيف في عينيك؟ ... هل أصابك مس من الجنون؟

الأم (من بين شفتيها)**:** دع ابنتي واخرج من هنا ...

الباشا: أتفهمين معنى ما تقولين؟ ...

الأم: أفهم معنى ما أقول ... لن تطأ قدمي أعتاب بيتك بعد الآن ... لن أرى لك وجهًا ... سأعيش مع ابنتي حيث تكون ... اخرج من هنا ...

الباشا: أخرج من هنا؟ ... أخرج من البيت الذي صنعته بيدي؟! ... أنسيت أن ابنتك تعيش في بيت من صنع يدي؟

الأم: لن نعيش في بيت من صنع يدك! ... سنرضى بالكفاف ونعيش في حي فقير، ونبيت إذا لزم الأمر على الطوى ... أنا وخيرية ... أليس هذا رأيك يا ابنتي؟ ...

خيرية: نعم ... نعم يا أمي! ...

الأم: والآن اخرج من هنا حتى ندبر لأنفسنا حياة أخرى ... اخرج ...

الباشا: لا تجعلي الغضب يعمي بصرك ... إن هذا ليس بيتك ... إنه على الأقل بيت رجل لا يعنيه من أمركما شيء، رجل مشغول بمستقبله، وهو في جيبي ... مثل هذا السيجار ... (يخرج سيجارًا ويشعله) أستطيع أن أحرقه وقتما أشاء! ...

الأم: سنعتمد على الله! ... جميعنا ...

خيرية: سأعمل مدرسة يا أمي ... أو عاملة في محل ... ونأكل من عرق الجبين.

الأم: خذي بعض متاعك يا خيرية، ولنذهب إلى بنت خالتك في مصر الجديدة ... إلى أن نعدَّ لنا سكنًا ...

الباشا: يحسن بي أنا أن أنصرف ... أولًا، ستندمان على هذا الموقف العدائي بلا ضرورة ... وستسعيان إليَّ يومَ تواجهان حقائق الحياة وقسوتها ... لتركعا عند قدمي ...

(حامد يظهر من الباب الذي ظهرت منه الأم.)

خيرية (بلهفة)**:** حامد! ...

الأم (بعتاب)**:** لماذا ظهرت الآن يا حامد؟ ...

حامد (للأم): لم أستطع البر بوعدي لك ... والانتظار حتى يذهب هذا الرجل ... يجب أن أقول له كلمتين ... بكل هدوء ... ورباطة جأش ...

الباشا: ما هذا؟ ... لم تسافر إذن؟! ...

حامد (بتحدٍّ وعنف): لم أسافر ... ولم يكن في نيتي السفر ...

الباشا: كان في نيتك أن تعد لنا هذه المفاجأة أيها الشاب المولع بالمفاجآت! ... يظهر أنك كنت تكثر من قراءة الروايات البوليسية يوم كنت عامل مكتبة فأغراك ذلك بدخول البيوت من النوافذ، ومفاجأة الناس بمثل هذه المواقف ...

خيرية (تهرع إلى ذراعي حامد): ... إني سعيدة بهذه المفاجأة ... متى جئت؟ ...

حامد: منذ قليل ... ما كدت أخرج مفتاح الشقة، حتى انفتح الباب ورأيت أمامي (يشير إلى الأم) أمنا ... فدخلت وأغلقنا الباب ...

الأم (تشير إلى حيث كانا مختبئين): نعم ... كان طول الوقت معي هنا ... وتفاهمنا على كل شيء ...

الباشا: هي إذن مؤامرة ... لضبطي في موقف مريب! ...

حامد: بل لأحمل أمتعتي الخاصة من بيتك هذا الذي صنعته بيدك ... القذرة ... وأبصق في وجهك ... وأذهب إلى غير رجعة ...

خيرية (صائحة): وأنا ... يا حامد ... أوَتتركني؟ ...

حامد (وهو يطوقها بذراعه): كيف أتركك؟! ... ولكن، هل تستطيعين الحياة بعيدًا عن هذا الترف ... (يشير إلى رياش البهو).

خيرية: إني معك ... حيثما تكون ... وأمي معنا ...

الأم: حيثما تكون يا حامد ... نحن معك ... ولنكافح من أجل اللقمة الشريفة معًا.

الباشا: معًا، حيثما يكون ...؟ يا للسذاجة ... أنسيتما أين سيكون؟! ... إنه سيكون غدًا في السجن! ...

الأم (صائحة): لا ... لن تفعل ذلك ... لن تسجنه ... لن تقضي على مستقبل بريء ... كن رحيمًا ...

حامد (للأم): لا أريد هذا الاستجداء ... لن أخشى غير حكم الضمير ... إني منذ زلتي الأولى ما ارتكبت قط ما يندى له الجبين ... ضميري لن يدينني أبدًا وإني لحكمه مستريح ...

الباشا: غدًا أمام القضاء ... قدم ضميرك مستندًا، تدرأ به أدلة الاتهام، إلى اللقاء ... جميعكم ... (ينصرف وهو يقول للأم) عودي إلى بيتك ... ولا ترتكبي حماقة ...

(يخرج وهو يسمع الأم تصيح.)

الأم: لن أعود ...
خيرية (لحامد)**:** إني خائفة عليك مما يبيِّت لك من شر ...
الأم (مقبلة على حامد)**:** أما من سبيل إلى إنقاذك؟ ...
حامد: أمري إلى الله ... هذا الرجل قد صنع الدليل قبل أن يصنع الاتهام.
الأم: إن الله لن يخزي بريئًا أبدًا ...
خيرية: فكر معنا يا حامد ... عن طريقة ... فلنفكر معًا.
حامد (يفكر)**:** ماذا يمكن أن أصنع؟ ... إن في السماء إلهًا.

(يسمع طلق ناري ... يدوي خارج الشقة ... ثم أصوات صياح وجلبة وطرق شديد على الباب ... فيستولي الوجوم على الأم وخيرية وحامد ... ويظهر الباشا يسنده الخدم، وهو يضع يده على الدم المتفجر من صدره، بينما صفارات البوليس تنطلق في الشارع.)

الباشا (بصوت متداعٍ)**:** قتلني شاكر ... في السلم ... كان متربصًا لي ... في السلم ... هل ضبطوه ... اضبطوا شاكر ... اضبطوه.
الأم (تهرع إلى زوجها ملهوفة)**:** محمود ... (تجلسه مع الخدم على مقعد كبير).
الباشا (يمد يده المتساقطة نحو التليفون)**:** الدكتور ... التليفون.
الأم: الدكتور يا حامد ... بسرعة ... اقفلي باب الشقة يا خيرية ... واطردي الناس ... عليَّ بقطن ... أليس هنا قطن.

(خيرية تجري مهرولة هنا وهناك.)

حامد (الذي كان قد أسرع إلى التليفون)**:** ألو ... ألو ... الإسعاف من فضلك بسرعة ...
الأم (صائحة وهي تنظر إلى يدها الملوثة بالدم)**:** عليَّ بمفرش ... أوقف هذا الدم.

(خادمة تسرع ملبية.)

الباشا (في حشرجة)**:** شربة ... ماء.
الأم (صائحة)**:** كوبة ماء ... خيرية ... حامد ... كوبة ماء على عجل ... على عجل.

(تأتي الخادمة بمفرش كبير، فتضمه الأم على صدر زوجها.)

الباشا (تخف حشرجته بالتدريج):

(الخادم يأتي بكوبة الماء فتتسلمها منه خيرية، ويتسلمها حامد ويسرع بها ...)

حامد (قرب الأم): الماء.
الباشا (ينحدر رأسه عن صدر زوجته):
الأم (تنظر في وجه الباشا وتجس نبضه وتصيح): محمود ... محمود ... مات ... مات ... (تنتحب) زوجي ... زوجي ... زو...جي.

(يبادر حامد والأم والخدم فيسجُّون الباشا ويسدلون على وجهه المفرش.)

ستار

هنـــداوي